الانفتاح نهج المعرفة والتعايش

محفوظة جميع الحقوق

الطبعة الأولى

١٤٣٤هـ-٢٠١٣م

موراد غريبي موراد

الانفتاح نهج المعرفة والتعايش

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـداء

إلى ...

أستاذي الذي حفر «أحرف الصدق» في وجداني منذ عرفته،
إلى من علّمني الانفتاح في رحاب ثقافة الإسلام،
وإلى الأحرف المكونة للأفكار الساطعة من بين كتبه الرسالية
المنفتحة على الأمة الإسلامية...
العلامة الأستاذ الشيخ حسن بن موسى الصفار،
إلى كلّ مسلم عالم ومفكر ومثقف وفقيه ومصلح وشهيد
انفتح على اللّه والإنسان والحياة.

موراد غريبي موراد

في البدء كان فكرة...

يعـود ميـلاد هـذا البحـث المتواضـع لصيـف ٢٠١٠م، في رحـاب قطيـف المحبة وبسـتان العارفين وواحة والأدبـاء والمثقفين، حيث زرتُ المملكـة العربيـة السـعودية، فجال في فكري تنفيذ مـشروع بحث يتناول دراسـة أهم المفاهيم التي يتناولها سماحة الأستاذ المفكر الإسلامي الشيخ حسـن الصفار ـ حفظه اللَّه ورعاه ـ في محاضراته وكتاباته ومشـاركاته في الفعاليات الثقافية والاجتماعية في جميع أنحاء العالم الإسلامي كلّه، إلى أن بزغت إلى الوجود مع نهاية العام الفارط ٢٠١١م، بعد تردّد وانشغالات عديـدة، لكـن قاطرة الكتابـة انطلقت بقـوة وثقة ومحبة وتوفيـق من اللَّه سـبحانه وتعـالى، وبدأت خارطة البحث تتحـدد معالمها مع الوقت حتى اكتملـت بعـد تعديـل وتقويـم ثـلاث مـرّات، وانفتـح العقل عـلى فكر الأسـتاذ الشـيخ، فعشـت في رحاب مؤلفات أسـتاذي أجمـل الأوقات، وصوته الأبويّ الرسـاليّ الصّداح بالحق وأهله، العاشـق للإسلام وأمّته، لا يفارقنـي طيلـة تحريـري لفصول هذا البحـث، كانت تجربـة حيّة بكلّ تلـك العبقـات النورانية التـي صادفتهـا في متون فكر المفكر الإسـلامي

الشـيخ الصفار، حيث ينزلك منزل صدق عند كلّ آية يتدبرّها أو حديث نبـويّ أو كلمـة إماميـة...

ولعـلّ القارئ الكريم سـيلاحظ تنوعًا في العـرض؛ لأن المنهج المتّبع في هذا البحث يعتمد على المسـح ومحاولة هندسة الأفكار المألوفة في عموم خطاب الأستاذ الشيخ حسن الصفار.

﴿الَّذِيـنَ يُبَلِّغُونَ رِسَـالاَتِ اللَّهِ وَيَخْشَـوْنَهُ وَلاَ يَخْشَـوْنَ أَحَـداً إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيباً﴾[سورة الأحزاب، الآية: ٣٩].

تمهيد

لا ريب أنّ القراءة المعمّقة للواقع العربي ـ الإسلامي، أو لنقل المجتمعات العربية الإسلامية، ترتبط أساسًا بعناوين أساس في وظيفة الثقافة الإسلامية لبعث مشروع النهوض الحضاري، وما يهمّنا في هذا الخصوص هي الوظيفة الاجتماعية لثقافتنا الإسلامية، وتركيزنا على الاجتماع الثقافي ـ إن صحّ التعبير ـ دون مقدّمات، نابع من أن مجتمعاتنا لديها رصيد ثقافيّ خام، لكن الإشكال المطروح: هل مجتمعاتنا اختارت ـ واقعًا ـ النموذج الثقافي الإسلامي؟

الجواب عن هذا الإشكال، بحاجة لاشتغال علمي دقيق ومستمر؛ لأن مجتمعاتنا الراهنة لا يمكننا الحكم عليها بأنها مجتمعات تاريخية تدافع عن أسلوب حياتها، بمعنى أنها تفتقد في الكثير من تفاصيل الحياة لما يعرف بالإرغام الاجتماعي، بطبيعة الحال دون الخوض في مسألة التحضّر الاجتماعي، ومن ثم أسلوب الحياة والسلوك الاجتماعي كلاهما يؤكد على اللافعالية الثقافية في مجتمعاتنا، مما يجعل الإشكال السابق محاولة استنهاض التفكير بخصوص الثقافة الإسلامية ووظيفتها الاجتماعية...

هذا المدخل، حاولت من خلاله التمهيد لحقيقة جوهرية تتعلق بتفاعلنا مع المفاهيم والعناوين الإسلامية الرئيسة في مضمار الفعالية الحضارية، حيث أي تفاعل يستبطن نشاطًا مّا، وهنا ارتباط فكرة الثقافة بالإسلام، في الواقع هي ذلك الحراك الاجتماعي الإسلامي، فالثقافة في بعض تعريفاتها هي تلك الصيغة البيداغوجية (كما يعبر عنها المفكر الإسلامي مالك بن نبي)، أي نظرية تنمية الفرد وبالتعدي المجتمع، وبطبيعة الحال كلّ مجتمع لديه نظريته الخاصة بالتنمية والمستندة لخياره الثقافي، وهذا الخيار يختزن شروطًا تاريخية نفسية...

مما تقدّم، أي عنوان إسلامي في اجتماعاتنا يحمل مورثاتٍ مّا من الثقافة الإسلامية الأساس، وفعالية هذا العنوان ترتبط تكوينًا وصحةً ببعض الشروط النفسية والاجتماعية المتعلّقة امتدادًا بالتاريخ الإسلامي كلّه...

الآن يمكنني البدء في موضوع البحث المتعلّق بأحد أهم العناوين الإسلامية الأصيلة، إن لم يكن أولها في مشوار تمكين الثقافة الإسلامية من وظيفتها في مجتمعاتنا...

إنه «الانفتاح»، هذا العنوان الذي يوحي بالبركة والشفافية والوضوح والحضور والمقابلة والإيجاب والرغبة في اللقاء والمصارحة، فهو فعالية لوظيفة مفهوم الفتح باصطلاحاته كلّها، ومن الممكن القول إن الانفتاح هو تمكّن ثقافة الفتح من وظيفتها الحضارية... عنوان الانفتاح، أسعى في هذه السطور لإثارته من خلال أفكار أحد أعزّ المفكرين وعلماء الدين على نفسي، وممن تشرفت بالتعلّم في رحاب شخصيته الإسلامية المنفتحة

وفكره الرّحب، للانفتاح على قضايا الأمة، واليوم أستاذن سماحته أن أرافقه في مشوار تنبيه الأمة بعناوين ثقافتها الأصيلة، ليكون التغيير سليمًا وصحيحًا، وتنتقل ثقافتنا في جوّها الخاص من حال الجمود والتنظير إلى الدّيناميّة والواقعية الرّساليّة ...

إنه عالم الدّين السعودي والمفكر الإسلامي سماحة الشيخ حسن بن موسى الصفار، في العديد من اشتغالاته الفكرية والاجتماعية، الذي ناقش قضية الانفتاح عنوانًا إسلاميًّا أصيلًا لا يحتاج إلى عناء كثير لإثبات أصالته، لكنه، كالعديد من العناوين، كلما طرح يبدو غريبًا مثيرًا للقلق، حيث يشير سماحته لذلك بقوله: «كأنّ الأصل هو الانغلاق والخصومة والتفرّق المذهبي، وعلى من يدعو للانفتاح أو إلى التقارب أن يأتي بالدليل والبرهان، وعليه أن يبرِّر موقفه.

كأنّ تشتّت الأمة وتمزّق أشلائها هو الواقع الذي ينبغي أن يتكرّس، ومن يدعو إلى الوحدة والتقارب يصبح مثارًا للسخرية، وهذا في حدّ ذاته فيه دلالة على عمق الانحراف الذي يعيشه قطاع كبير من أبناء الأمة»[1].

كما يُعبّر سماحته في مورد آخر: «ومن تلك العناوين الغائبة المغيّبة، عنوان الوحدة والتقارب والانفتاح بين طوائف الأمة، ومدارسهم المذهبية والفكرية... إنّ أيّ مسلم لديه شيء من المعرفة بمبادئ الإسلام، لا يستطيع إنكار مبدأ الدعوة إلى وحدة الأمة، فهو مبدأ أساس نصّت عليه

(١) كتاب: الانفتاح بين المصالح والهواجس، ص١٢ ـ ١٣، أطياف للنشر، القطيف.

آيات محكمة من كتاب اللَّه، وأحاديث صحيحة من سنة رسول اللَّه ﷺ، كما يؤيّده العقل والوجدان، وتؤكّد عليه تجارب الأمم القوية الناجحة.

فقضيّة وحدة الأمة، ليست من القضايا النظريّة التي تقبل الأخذ والردّ، وتحتاج إلى البرهنة والاستدلال، بل هي من ضروريات الدين المسلّم بها عند فقهاء المسلمين، لكن عصور الاستبداد والتخلّف، التي عاشت الأمة في ظلّها انقسامًا مذهبيًّا حادًّا، على الصعيد الثقافي والنفسي والاجتماعي، صيّر الفرقة والقطيعة واقعًا مقبولاً، وكأنه الحال الطبيعي الذي يجب أن يستمرّ في حياة الأمة. بينما أصبحت عناوين الوحدة والتقارب والانفتاح، وكأنها شعارات برّاقة، ينخدع بها الحالمون، وضعاف العقيدة في مذهبهم، واللاهثون خلف المصالح السياسية.

إنّ دعاة الوحدة والانفتاح والتقارب بين أتباع المذاهب تلاحقهم علامات الاستفهام، وتثار أمام حركاتهم الإشكالات، وكأنهم يدعون إلى منكر، أو يرفعون شعارات تشكل خطرًا على مصلحة المذهب وصدق الاعتقاد.»[1]... ويعتبر سماحته أن: «العزوف عن الانفتاح على الآخر، وغياب الحوار بين القوى والأطراف المختلفة في مجتمعاتنا يعتبر مكمنًا أساسًا من مكامن الداء في هذه المجتمعات، ومظهرًا صارخًا من مظاهر التخلف»[2].

(١) كتاب الطائفية بين السياسة والدين، ص٢١ ـ ٢٢، المركز الثقافي العربي.
(٢) كتاب: الحوار والانفتاح على الآخر، ص٧، دار الهادي، بيروت.

حقيقة أزمة الانفتاح

مـن المقـولات الفلسـفية الرّائعـة: أشـكل الإشـكالات توضيـح الواضحـات، ولعـلّ عنـوان الانفتـاح، كواحـدٍ مـن العناويـن الحضارية الاسـتراتيجية في بنـاء الاسـتقرار السـياسي والاجتماعـي وتحقيـق التنمية المسـتدامة للمجتمعـات، لا يمكن إيضاحه؛ لكونه يعـاني من عوامل عدّة كانت ولا تزال مأزقًا حقيقيًّا أمام وعي مجتمعاتنا له، كضرورة استراتيجية في تعارف تنوعاتها على بعضها من أجل عيش مشترك سليم...

يذكر الشيخ الصفار بخصوص سرّ غربة عنوان الانفتاح لدى شرائح مجتمعاتنا بتعداد بعض العوامل الأساس، قائلًا:

تشـترك عـدّة عوامـل في تكريس هذه الحالـة المرضيـة ـ العزوف عن الانفتاح على الآخر ـ، منها:

العامل التربوي:

حيـث تزرع العائلة في نفوس أطفالها الحـذر من الاختلاط بالآخرين

بشكل مبالغ فيه، وتمارس مع أبنائها أسلوب الأمر والزّجر دون إعطائهم فرصة للتفكير والنقاش. كما تعتمد أغلب مناهج التعليم طريقة التلقين وفرض الرّأي الواحد، ورفض ما سواه؛ لأنه باطل وكفر وشرك وابتداع.

عامل التوجيه الديني:

في مجتمعاتنا ينتهج في معظمه أسلوب الحدّية والتطرف تجاه الآخر، على أساس أنه: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾[سورة يونس. الآية٣٢]، وأنّ فرقة واحدة هي الناجية والباقين في النار، مع تطبيق ذلك على تفاصيل موارد الاختلاف وتنوع الاجتهادات، ويدفع هذا النمط من التوجيه الديني إلى مقاطعة الآخر المخالف والمختلف، معاقبة له على ضلاله، وإنكار لمنكره، ولردعه عن بدعته، وللتحصين من تأثيراته المختلفة، والتزامًا بواجب البراء منه.

العامل الاجتماعي:

تتمايز التكتلات والانتماءات إلى حدّ القطيعة والتنافر، ويصبح التواصل من الجهة الأخرى لونًا من الخيانة للجماعة، وانعدام الولاء، وميوعة الانتماء؛ لأن صديق العدوّ عدوّ.

العامل السياسي:

الأمر أشدّ قتامة وتعقيدًا في ظلّ حكومات الاستبداد، حيث لا مجال للرأي الآخر، ولا فرصة للمعارضة، ولا قيمة لمن يخالف أو يعارض، حتى يتنزّل الحاكم من علياء هيبته للاستماع إليه والانفتاح عليه، وإنما

يتعامل معه كمجرم يستحقّ أقسى العقوبات لشقّه عصا الطّاعة[١].

كما تبالغ بعض جهات المعارضة في تشدّدها، فتمارس المعارضة حرفة، وشأنًا توقيفيًّا تعبّديًا، لا تلوثه بشيءٍ من الحوار والانفتاح على السلطات، فذلك ركون إلى الذين ظلموا، ومساومة في الدّين، وتراجع عن خطّ الثورة والجهاد.»[٢]

العامل الثقافي:

وفي السِّياق نفسه، هناك العامل الثقافي الذي يعتبر مركزيًّا بالنسبة للعوامل السابقة الذكر كلّها، حيث يشير إليه سماحته بـ «وجود ثقافة شديدة الأدلجة في مجتمعاتنا على حساب حقوق الإنسان وعلى حساب الحرّيات، هذه الثقافة السائدة هي أيضًا سببٌ رئيسٌ لإفراز العديد من المشكلات التي نعانيها...»[٣]، وتحت هذا العامل تدخل القوة التي تمارس دور الوصاية والقمع الفكري، فتحدّ من حرّية الفكر، وتمنع نشر ما يخالفها من رأي، وتحظر على الناس الاطّلاع على الرأي الآخر، التي أسهب ـ سماحته ـ في تفكيك حيثيّاتها وأبعادها وخلفيّاتها في كتابه: «الأحادية الفكرية في الساحة الدينية».

(١) حالة الانسداد السياسي، كتاب: الطائفية بين السياسة والدين، ص١٢، المركز الثقافي العربي.
(٢) كتاب: الحوار والانفتاح على الآخر، ص٧ ـ ٨، دار الهادي، بيروت.
(٣) كتاب: المشكل الطائفي والمسؤولية الوطنية، ص٢٤.

العامل الإعلامي:

إنّ وجود التّشويش وإعلام مضادّ للرأي الآخر، يخلق عزوفًا عند المتأثرين به عن الاقتراب من ذلك الرأي. والإعلام المضادّ سلاح يشهر دائمًا في الصّراعات والخلافات، خاصة ذات الطابع الفكري والثقافي، ويتوقّع من الإنسان الواعي ألّا يقع تحت تأثير الدعاية والإعلام بين الأطراف المتنازعة، على حساب مرجعيّة العقل، والتفكير الموضوعيّ، فيتيح لنفسه فرصة الدراسة والبحث، ويعطي لعقله مجال الاطّلاع المباشر على الآراء المختلف حولها.»[1]

ومما أشار إليه الشيخ الصفار من أسباب ومبرّرات عامّة بخصوص محنة الانفتاح في واقع مجتمعاتنا العربية والإسلامية والرّضا بالانغلاق، التي يمكن إدراجها ضمن العوامل السابقة ما يلي:

«الجهل والسّذاجة: فمن يدرك المعرفة والعلم، ويتطلّع إلى الحقيقة والصّواب، يظلّ باحثًا عن الحقّ، طامحًا إلى الرّأي الأفضل، أما الجاهل الساذج فيعيش شعورًا بالاكتفاء ويرى أنّ ما لديه من رأي يمثّل الحقيقة المطلقة، والسقف الأعلى للمعرفة.

اللامبالاة: الكسل عن البحث والتحقيق تجاه القضية التي تتعدّد حولها الآراء، وتكون مثارًا لاختلاف الأفكار، فهو لا يجد نفسه معنيًا بتكوين رأي أو اتخاذ موقف، فلماذا يشغل ذهنه بالتفكير والبحث والمقارنة. لما قد يستلزمه الانفتاح على الرأي الآخر من إعمال الفكر والنظر وبذل الجهد في

(١) كتاب: الحوار والانفتاح على الآخر، ص١٧، دار الهادي، بيروت.

الدراسة والمقارنة بين الآراء والأفكار.

ضعف الثقة بالذّات: في كثير من الأحيان يكون صارفًا عن التعرف على الرّأي الآخر، حيث لا يجد الإنسان نفسه مؤهلًا للاستقلال بتكوين رأي أو اتخاذ موقف، ولا قادرًا على التمييز بين الخطأ والصواب، فيترك هذا الدّور للمؤهّلين مكتفيًا بالتقليد والاتّباع. وإذا كان صحيحًا في الأمور التخصصية العلمية، فإنه لا يصحّ فيما عداها، وإلّا لتوقّف دور العقل، وانحصرت الاستفادة منه في حدود شريحة معينة...

الخوف من مواجهة الحقيقة: قد يتهيّب الإنسان من مواجهة الحقيقة في مجال من المجالات، لما قد يترتب عليه من تغيير في أوضاعه ومواقفه، فيتهرّب عن الاطّلاع على الرأي الآخر، حين يكون غير واثق تمامًا من الرأي الذي يعتنقه، فيحرجه الانفتاح على الرأي الآخر، والذي قد يكشف له عن خطأ فكرته أو رأيه.»[1].

تجلّيات أزمة الانفتاح

لو حاولنا الوقوف على مدى حيوية الانفتاح في واقعنا العربي والإسلامي، سوف ننصدم بمدى التصلّب والتعصب والانغلاق الذي يقيّد اجتماعنا العام، وحتى نكتشف حقيقة أزمة قيمة الانفتاح وغربتها في حياتنا العربية، لا بُدَّ من الوقوف على تجلّياتها بعدما اكتشفنا مع سماحة الشيخ الصفار، أكثر العوامل تكريسًا لثقافة الانغلاق، وسماحته قد

(١) ن.م، ص ١٦ ـ ١٧.

حـدّد عدة صور لأزمة الانفتاح من خلال دراسـته المسـتفيضة للمشـكل الطائفـي وأثره على الوحدة، وكـذا حقيقة مفهوم الطائفية ومدى ارتباطها بما هو سـياسي أو ديني، فمن خلال تحديد سـمات الثقافـة الطائفية يمكننا استيعاب مستوى الأزمة التي تعاني منها ثقافة الانفتاح في وعينا الإسلامي المعاصر.

ينطلق الشـيخ الصفار من خمس سماتٍ أسـاس لمجتمعاتنا بخصوص تشكيل الفكر الطائفي أو المذهبي:

أولاً: التركيـز عـلى مواقع الخـلاف المذهبي مـع محدوديتهـا، وتجاهل مناطق الاشـتراك الواسـعة، ويتمّ في أحيانٍ كثيرة افتعال قضايا الخـلاف في مسـائل جزئيـة جانبيـة، وإذا كان للمذهـب رأيان أحدهمـا يخالف المذهب الآخـر، والآخر يوافقه، فـإنّ الترجيح يكون للرأي المخالف.

ثانيًا: تلمّس نقاط الضعف في تراث المذهب الآخر والتشهير به، حتى لو كان رأيا شـاذًّا، أو موقفًا لفرد أو فئة من المذهب، فإنه بجري تعميمها، ومحاكمة المذهب وكلّ أتباعه على أساسها.

ثالثًا: نبْش حوادث التاريخ، للتذكير بمعارك النزاع والصراع السابقة، مما يغذّي الأحقاد والضّغائن، ويورثها للأجيال.

رابعًا: تجريـم النّقـد الـذاتي، وحرّيـة التعبـير عن الـرأي، داخـل كلّ مذهـب، فيما يمسّ قضايا الخلاف المذهبـي، واعتباره نوعًا من التنازل للطرف الآخر، أو المساومة على العقيدة والمبدأ.

خامسًا: تعميق النظرة الدونيّة على المستوى الديني لأتباع المذاهب الأخرى، باعتبار أن أتباع المذهب هم الفرقة الناجية، أما الفرق الأخرى فكلها هالكة وفي النار»[١].

أما على المستوى الاجتماعي، أو ما عبّر عنه سماحته بالقطيعة الاجتماعية، التي جعلت من الانفتاح خطًّا أحمر، يُعبّر سماحته بالقول: «إن التباعد والقطيعة بين أتباع المذاهب، قلّل فرص التعارف المباشر، ومنح الفرصة لانتشار الانطباعات الخاطئة، والصور السلبية، في أوساط كلّ طرف تجاه الآخر، اعتمادًا على النّقولات المتوارثة، والشائعات المتداولة، ويدهشك حين تسمع كلام فئة عن أخرى تعيش معها في منطقة واحدة، ومن وطن واحد وكأنه حديث عن قوم يعيشون في كوكب آخر.[٢]

كما أنتجت القطيعة جفاف مشاعر الودّ المتبادل، فأصبحت كلّ طائفة كيانًا اجتماعيًّا مستقلًّا، لا ارتباط له بكيان الطائفة الأخرى.

فلكلّ طائفة مساجدها، ومرجعياتها، ومؤسساتها الاجتماعية والثقافية الخاصة بها، دون وجود جسور من التعارف والتعاون والتنسيق.

أما التزاوج بين أبناء الطوائف، وخاصّة بين السنة والشيعة، فتحول دونه موانع دينية عند البعض، وعوائق اجتماعيّة عند البعض الآخر، وإلا في حالات نادرة تتم بعد كفاح مرير.

---

(١) كتاب الطائفية بين السياسة والدين، ص ١٧، المركز الثقافي العربي.
(٢) يمكن الاستفادة أكثر بالاستماع لخطبة سماحة الشيخ حول الإعلام الطائفي وتفجير الصراعات، ٨/ ٥/ ١٤٣٣هـ.

وامتـدت حالـة القطيعـة والانفصـال الاجتماعي، إلى ميـدان الحركة السياسـية، فلـكلّ طائفـة رموزها، وتنظيماتهـا، وبرامجها، ومرشّـحوها في الانتخابات»[1].

(١) كتاب الطائفية بين السياسة والدين، ص ١٨ ـ ١٩، المركز الثقافي العربي.

ماهيّة الانفتاح على الآخر

قبـل اكتشـاف معـالم الانفتاح لا بُدَّ مـن الوقوف على مفهـوم الآخر، حتى يتسـنّى لنا الانتقال إلى ماهية الانفتاح وعلاقته بالتعارف وما هنالك من عناوين حضاريّة مهمّة في مشـوار نهـوض الأمة وتنمية اجتماعها العام (الثقافي والسياسي والعلمي)...

لماذا الانفتاح على الآخر؟

في البدء يتعرّض الشيخ الصفار لمفهوم الآخر في أحد مؤلفاته بأسلوبٍ واضحٍ ودقيقٍ في آنٍ واحدٍ، حيث يقول:

«والآخـر: المختلف عنّا في أيّ جانـب من الجوانب التي نهتمّ بها، فقد يكون آخر من حيث انتمائه الاجتماعي، لعرق أو قومية أو قبيلة.

وقد تكون آخريته لجهة انتسـابه الدّينـي أو الثقافي، لمبدأ أو مذهب أو مدرسة فكرية.

كما يكون اختلاف التوجّه السياسي أو النهج السلوكي سببًا لتشكيل الآخرية.

وهكذا يتحدّد الآخر في مختلف دوائر اهتمامات الإنسان ومجالات تركيزه.

والآخر قد يكون جزءًا من بيتنا العائلي، وأسرتنا الصغيرة، حيث قد يختلف الدّين، أو المذهب، أو المسلك، بين الزوجين، وبين الوالدين والأولاد، وفيما بين الأخوة الأشقّاء.

وقد يكون الآخر جارًا لنا في السكن، أو زميلًا لنا في العمل.

وفي إطار أوسع قد يكون الآخر شريكًا لنا في الوطن، أو الانتماء الحضاري.

وعلى المستوى الدولي: هناك جوار جغرافي، وتشابك في المصالح وخاصّة في عالم اليوم، الذي أصبح قرية كونية واحدة.

مما يعني أن الآخر جزء من حياتنا، كأفراد، وشعوب ودول نتداخل معه، ونتأثّر به، ونؤثّر فيه، إنه لا يمكن إلغاء الآخر ولا الانفصال عنه كليًّا.

تلك هي الحقيقة التي لا مراء فيها ولا يمكن تجاهلها.

بَيْدَ أن الامتحان الحقيقيّ أمام الإنسان، هو مدى قدرته على تنظيم

علاقته مع الآخر، أخذًا وعطاءً، حتى لا يصبح التمايز سببًا للجفاء والعداء، بل دافع للتنافس الإيجابي، والتعاون، والتكامل والإثراء»[١].

وفي المصدر نفسه يتطرّق الشيخ الصفار لمفهوم الآخر حسب اصطلاح الكتاب المحدثين، على تقسيم الآخر إلى نوعين: «الآخر الخارجي المنتمي إلى حضارة وكيان آخر.

والآخر الدّاخلي أو الجوّاني وهو المختلف ضمن ذات الإطار الديني والوطني، حيث تعدّدت المدارس الفكرية، والمذاهب، والتوجّهات السياسية، ضمن الأمة الإسلامية»[٢].

ثم يعرّج الشيخ الصفار على مصطلح الآخر، ليعطي وعيًا سليمًا عن ثقافة الاختلاف وكيفية التعامل مع حقيقة الآخر، فما بين مفهوم الآخر وسنة الاختلاف تلازم اصطلاحي وترابط موضوعي، يستدعي معرفة الأول لاكتشاف الثاني أو التأمّل في الثاني لتقبّل الأول، وهذه العلاقة التلازمية الموضوعية بين مفهوم الآخر وثقافة الاختلاف، يبسطها الشيخ الصفار من خلال تساؤل واقعي وبسيط، تركيزًا لوعي الآخر من لدن الذات: «ماذا يفعل الإنسان إذا ألحّ على قلبه ظنّ سيء تجاه إنسان آخر؟

وكيف يستطيع أن يواجه ذلك الخاطر السيئ؟

قد يصعب عليه تجاهل شكّ سيطر على ذهنه، وهو في ذات الوقت لا

(١) كتاب: كيف نقرأ الآخر، ص ١٩ ـ ٢٠، الدار العربية للعلوم بيروت.
(٢) ن. م، ص٣٣.

يرغب في الاستمرار مع مفاعيل الظنّ السّوء.

إن الوعي السليم والتفكير الموضوعي يفرض على الإنسان هنا الانفتاح على الشخص المعني ومصارحته بما يدور في نفسه حوله، لإعطائه الفرصة لتوضيح موقفه، إن كان له مبرّر أو مسوّغ وتشجيعه على التراجع عن خطئه إن كان مخطئًا...

ما أحوجنا إلى الشفافية والوضوح، وأن يكون الانفتاح والمصارحة هو السبيل لمعالجة تحفّظاتنا وإشكالاتنا على بعضنا بعضًا، بدل أن نعيش في ظلّ أجواء ملبّدة بغيوم الشّكوك والظّنون، وأن تتضرّر علاقتنا الاجتماعية بتأثير حالات الارتياب والافتراء».[١]

وفق هذا التّحليل البيداغوجي الرّصين، يركّز الشيخ الصفار على ضرورة وعي مفهوم الآخر في حياتنا الفردية والاجتماعية كأمّة: «القراءة الصّحيحة فيما بين الأطراف تؤسّس للرؤية السليمة والتعامل الإيجابي، بينما خطأ القراءة ينتج سوء التعامل والتفاهم، ويؤدّي إلى علاقات سلبية»[٢].

وعلى هذا الأساس يعطي برهانًا واضحًا على ضرورة الانفتاح على الآخر، لكنه أيضًا يحرص على بناء ثقافة الانفتاح وفق مرتكزات أساس، نأتي على ذكرها من خلال ما استجمعته من عدّة مؤلفات للأستاذ الشيخ حسن الصفار:

(١) كتاب: التسامح وثقافة الاختلاف، ص٦٢ ـ ٦٣، دار المحجة البيضاء ودار الواحة ـ بيروت.
(٢) كتاب: كيف نقرأ الآخر، ص٣٧، م. س.

الموضوعية:

أن تكون القراءة هادفة لمعرفة الآخر، كما هو على حقيقته، دون ميل أو انحياز مسبق يجعل بصر القارئ زائغًا.

وعدم إساءة تفسير الرأي الآخر وعمله، ما دام يحتمل وجهًا للصحة.

إن البعض يقرأ الآخرين متبرعًا بالتعبير عن نيّاتهم ومقاصدهم، فيشكّك في الصحيح من أعمالهم، والظاهر من معاني أقوالهم، بأن لذلك معانيَ وأهدافًا أخرى.

وقد نهى اللّه تعالى عن سوء الظنّ، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾[سورة الحجرات، الآية١٢].

وجاء في سنن أبي داود عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث».

وورد عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «لا تظنّ بكلمة خرجت من أحد سوءًا وأنت تجد لها في الخير محتملاً».

استيعاب حقّ الاجتهاد وشرعية الاختلاف في الرأي:

يُعبّر الشيخ الصفار قائلاً: «إنّ ما أريد التنبيه عليه في هذه النقطة، أن هناك تيارين في كلّ مجتمع فيما يخصّ الشأن الديني والفكري، وبإمكان كلّ تيار أو اتجاه أن يطرح رأيه ووجهة نظره، ولكن عليه ـ في المقابل ـ أن

يسمح للآخرين بطرح رأيهم، وكذلك أن يبدي رأيه فيما يطرح الآخرون، ولكن دون اللجوء إلى أجواء الإرهاب الفكري، فالتشكيك في دين الطرف الآخـر، وإخراجه من المذهب، ووصفه بالارتـداد والضّلال والبدعة وما إلى ذلك، تجاوز للحدود، واسـتهداف شـخصي، وإسـقاط لأناس محترمي الشـخصية، ولا يتناسـب والحرية الفكرية، ومجـرّد المخالفة في الرأي، ولا ينبغي أن يسـود في أيّ مجتمع، فهو حالة سـلبية، لا تساعد على تنمية الفكر والمعرفة في هذه المجتمعات وأوساطها.»[1].

وفي السياق نفسه، يذكر الشيخ الصفار في ردّ له على إحدى المداخلات حـول محاضرة لسـماحته وحوار معـه في ديوانيـة الملتقى الثقـافي بالقطيف قائلًا: «... كلّ إنسـان يتمسّـك بما هو مقتنع به.. ليس مطلوبًا من الشّيعي أن يتنـازل عن شيء مـن قناعاته.. أو من آرائه الفقهية والمذهبية.. كما ليس مطلوبًا مثل ذلك من السّني...

قبل ليلتين كنّا في جدة في لقاء ضم عددًا من العلماء والمثقفين.. ودارت دفّـة الحديث... فقال أحد الحاضرين: أنتم تنزعجون إذا طرح السـلفيون آراءهم العقائدية.. وتعتبرون طرحهم لآرائهم تجاوزًا عليكم؟

فأجبته: إن من حقّ أيّ عالم سـلفي وغير سلفي أن يطرح رأيه. فنحن ننزعج من التعدّي على حقوق الآخر...

(١) كتاب الانفتاح بين المصالح والهواجس، ص١٩ ـ ٢٠، أطياف للنشر (القطيف) ٢٠٠٩.

أمـا هو، فيـمارس حقّه ويطـرح رأيه.. فيقـول أنا أرى أن بنـاء القبور حـرام.. حقّه.. يطـرح رأيه.. لكن حينما يقول.. مـن يبني القبور مشركٌ.. لا.. أصبـح هذا تعـدٍّ على الآخرين.. مـن يبني القبور عنـده دليل.. عنده رأي.. وأنـت عنـدك دليـل وعنـدك رأي.. أنت اطرح رأيـك وهو يطرح رأيه.. فحينما نقول الشيعة ينفتحون على الآخرين، لايعني أن يتنازلوا عن ثوابتهم ..بل يتمسـكون بثوابتهم بقناعاتهم بمعتقداتهم، وهذا لا يمنع من الانفتاح على الآخرين..

في بعـض الأحيان قضايـا جانبية أو قضايا فيها إسـاءة للطرف الآخر نعتبرها من الثوابت.. !!

أعتقد أن كلّ ما فيه إساءة للآخر لا يمكن أن يكون من الثوابت.. وإنما هو أدخل إلى المذهب وأدخل إلى الدين.. فالدّين والمذهب لا يربّي أبناءه على الإسـاءة للآخرين، والاعتداء عليهم.. فإذا التزمنا عدم الإسـاءة للآخر.. نلتزم عقائدنا وأفكارنا.. وهم أيضًا يلتزمون عقائدهم وأفكارهم.. فأنا لا أجـد أن هناك تناقضاً بين الأمرين، أمـا الدعوة لأن ينغلقوا حتى يصبحوا أقوى.. فهو غير صحيح، من ينغلق في هذا الزمن يضعف.. نحن في زمن الانفتاح والتواصل.. بمقدار ما تنفتح تقوى، وليس العكس.. العاجز من يخـاف الانفتـاح.. الضعيف يخاف الانفتاح.. أما من عنده ثقة بنفسـه.. لا يخاف ذلك.. إن وجد عند الآخرين ما هو أفضل أخذه..

﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾[سورة الزمر: الآية ١٨].

وإن كان ما لديه أفضل أو هو مقتنع به .. يتمسك به .. نحن نجد أن أتباع الديانات الأخرى، والمذاهب الأخرى، ينفتحون على مختلف العالم مع كلّ قناعاتهم وعقائدهم..»[1].

(١) كتاب: المشكل الطائفي والمسؤولية الوطنية ص ٦١ ـ ٦٢، ط٢، دار الانتشار العربي (لبنان) ودار أطياف (السعودية) ٢٠٠٩.

الانتقال من كهف التعصّب إلى فضاء التعايش

في العديد من كتاباته ومحاضراته يؤكد الشيخ الصفار على نقطة جوهرية واستراتيجية في وعي ثقافة الانفتاح على الآخر، تتحدّد في قضية نقد الذات، وترتبط أيضًا بوعي حقيقة العصبية وما يتفرّع عنها من تنميط وتعميم وصولًا إلى قبول ضرورة التعايش بعد وعي حقيقة التنوع، وإيضاحًا لهذا المرتكز الأساس في بناء وعي ثقافي رصين عن الانفتاح، أرى أهمية استدراك تحليلات الشيخ الصفار لكلا البعدين (التعصّب والتعايش) حتى تتضح لنا أكثر ماهيّة الانفتاح.

ينطلق سماحته بأسلوبه التربوي الرّحب ـ كعادته ـ ليثير دفائن العقول للقضايا والأفكار والتّصورات التي كرّست التخلّف في أوساط مجتمعات أمتنا، حيث يقول: «إن التزكية المطلقة للذات وتجاهل نقد الآخرين، مهما كانت أغراضهم منه، تحرمنا التقدم والتطور، وتفوّت علينا فرص الإصلاح والتغيير...». وعن الذّات أيضًا، وفي سياق حديث سماحته عن

داء التعصّـب، يوصي بالقول: «فإذا ما رأينا الأعـداء يتّهموننا بهذه الصفة السيئة ـ أي التعصّب ـ، فلا يصحّ أن نقف عند حدود إدانة الاتهام ورفضه، بل علينا، إلى جانب ذلك، المزيد من مراجعة الذات ونقدها، والقيام بعملية مسح فكري واجتماعي، لاكتشاف ما قد تعانيه الأمة وثقافاتها من حالات إصابة بهذا المرض الخطير: التعصب. ومن ثمة السعي لمعالجتها والانتصار عليها»[1].

ومن مصاديق تقديس الذّات أيضًا إشكاليات مهمّة تتمثّل في تقديس التراث وكيفية قراءته وتمحيصه وما هنالك من مراجعات وتصنيفات: «إن تراث أيّ أمّة هو موروثها الثقافي والفكري والديني والأدبي والفني الذي تتناقلـه وتتوارثه أجيالها. وتتفـاوت الأمم في حجم مخزونهـا التراثي، تبعًا لتفاوت مسـتويات حضاراتها، فالحضارة الأقـوى تنتج تراثاً أكبر وأرقى، لذلـك نجد المـوروث الثقافي لبعض الأمم محـدودًا ومتواضعًا، بينما يكون واسعًا ثريًّا لدى أمم أخرى.

كـما أن درجة التمسّـك والتعلق بالـتراث تختلف من أمّـة إلى أخرى، ومن جيلٍ إلى آخر، بفعل عوامل وأسباب مختلفة.

والأمّة الإسلامية من أكثر أمم الأرض اهتمامًا وتعلّقًا بتراثها، لما له من صفة وصبغة دينية، تجعله موضع القداسة والتعبّد، وهو تراث واسع شامل يغطي مختلف مجالات الفكر والسلوك، لطبيعة شمولية الرسالة الإسلامية،

(١) كتاب: الحوار والانفتاح على الآخر، ص٦٢ ـ ٦٣، دار الهادي، بيروت ط١، ٢٠٠٤.

ومعالجتها لجوانب الحياة الفردية والاجتماعية، المادية والروحية.

كما أن مستوى التقدم والرّقي الذي حقّقته الحضارة الإسلامية في عهود سابقة، أنتج زخمًا كبيرًا من التجارب والخبرات، وثروة هائلة من المعارف والثقافات.

وقد يكون من أسباب تعلّق الأمة بتراثها الإسلامي، إضافة إلى ما سبق، ما واجهته الأمّة في هذه العصور المتأخرة، من نكبات وصدمات، رأت فيها تهديدًا لوجودها وهويّتها، خاصة تلك المحاولات والمخططات التي تستهدف تراث الأمة، وانتمائها الديني لإصابتها بالهزيمة النفسية، وتجريدها من منابع قوتها وصمودها، وإلغاء وحدتها، باعتبار أن تراثها الديني هو محور تلك الوحدة والارتباط بين مجتمعاتها وشعوبها المتعدّدة الأعراق والقوميات والبقاع. في مواجهة هذه الأخطار والتهديدات، وكردّ فعل لها، ازداد تمسك الأمة بتراثها، واحتمائها بدينها، كحصن للحفاظ على الهوية، وملجأ للدفاع عن الذات...

إنّ حرص الأمة على تراثها، واحترامها لتاريخها وأسلافها، لا ينبغي أن يؤدي إلى حالة من الأسْر والانبهار، والتوقّف والجمود، فذلك يعني الخروج من معادلة التاريخ، وانتهاء الدور الحضاريّ، والقبول بالتخلّف عن مسيرة الحياة.

فتراث الأمة في مجمله، عدا النصوص الشرعيّة الثابتة، يعبّر عن جهد بشري في الفكر والممارسة، بذلته الأجيال السابقة، وهو محصّلة

خبراتها وتجاربها.

ولا يمكن ادّعاء العصمة والكمال لأيّ جهد بشري، باستثناء ما صدر عن وحي إلهي، وتسديد خاصّ(عصمة)، لذلك من الطبيعي أن يحتوي التراث على نقاط الضعف والقوة، والغث والسمين، والخطأ والصواب، كما أن تناقل التراث عبر مسيرة زمنية، يجعله معرضًا للشّوائب والتحريفات.

وليس كلّ ما في التراث ـ وإنْ كان صحيحًا ـ قابلاً للتمثل والمحاكاة في كلّ عصر...

فالأمّة تعلن انحيازها لتراثها، وتظهر تمسكّها بشعاراته وشعائره، مما يعطي للتراث حضورًا ودورًا في صنع الواقع المعيشي.

إننا لا نستطيع أن نتَّهم ونُدين كل تراثنا، فهو يشتمل على قيم الدين ومبادئه التي نؤمن بصحّتها وصوابها، لكننا نستطيع افتراض الخطأ في طريقة تعاملنا مع التراث، ومنهجيّتنا في الاختيار والانتقاء منه.

لقد تورّطنا في الأخذ بجوانب سلبية من التراث، وقدّسنا ممارسات خاطئة لبعض الأسلاف، ووقعنا في فوضى تراثية اختلط فيها علينا الحابل بالنابل، فاخترنا من التراث ما يبرِّر لنا واقعنا، وما يحقّق في أنفسنا الرضا عن أوضاعنا المتخلّفة...

إننا مطالبون بغربلة التراث، وحسن الانتقاء والاختيار منه، وتجاوز

الحرفيـة في فهم النصوص وتفسـيرها والخروج مـن أسْر التقديس المطلق لكل التراث ولجميع السلف، الذي يفقدنا القدرة على التقويم الموضوعي، والتعامل السليم».[١]

هذا عن تقديس الذات والتراث، وعلى النسق نفسه، يشير سماحته إلى مسـألة أخرى ترتبط بقضية التعصّب أو الانغلاق: «الارتياب من الرّيب، وهو بمعنى الشـك مع التهمة، بأن يشـكّ الإنسان في نوايا الطرف الآخر، ويتهمه بسـوء مقاصـد أعماله وتصرفاته. وهذا الشّـكّ والاتهام إنما يحصل في نفس الإنسـان، لأنـه يعلم بوجود النزعات الشريـرة، ويدرك أن بعض المظاهر البرّاقة قد تخفي وراءها أهدافًا خبيثة...لكن الخطر الحقيقي يكمن في أن يصبح الارتياب وسـوء الظنّ مسلكًا عامًّا للإنسان، بحيث ينظر إلى كلّ الناس بنظّارة سوداء، ويشكّك في كلّ أحدٍ وكل شيء.

وهـي حالة مرضية يصاب بها البعض، فيفقـد الثقة فيمن حوله، وقد تتفاقـم هـذه الحال فيـسيء الظنّ حتـى في ربه وخالقـه، كما يحدّثنـا القرآن الكريـم عن بعض المشركـين والمنافقين: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّـوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾[سورة الفتح، الآية:٦]»[٢].

وينبّه سـماحته أيضًا للاسـتغراق في الارتياب: «إن كان قلب الإنسان مفتوحًـا أمام مختلف الخواطر والظنـون، فترد عليه دون اختيار منه، إلا أن

(١) كتاب: الأحادية الفكرية في الساحة الدينية، ص٥٦ ـ ٦٥، ط١، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ٢٠٠٨.
(٢) كتاب: التسامح وثقافة الاختلاف، ص٥٥ ـ ٥٦، ط١ ٢٠٠٢.

للحالة الفكرية والنفسية وللمحيط الاجتماعي، أثرًا في تحديد نوعية تلك الخواطر والظنون، أو لا أقلّ في تعزيز نوعيّة معينة منها.

فهناك عوامل عديدة تدفع الانسان للاستغراق في الارتياب تجاه الآخرين، وتفقده توازنه في النظر إليهم وتفسير أعمالهم وتصرفاتهم، ومن أبرزها:

١. **ضعف الوازع الديني**: فالقلب المتصل باللَّه تعالى، والذي يستشعر حضوره ورقابته، لا يختزن الظنون السيئة ولا يحتفظ بها ولا ينمّيها في جوانحه، حتى وإن خطرت على صفحته، بل يطردها ويكنس آثارها من نفسه بذكر اللَّه تعالى وبالوعي السليم.

٢. **مرآة الذات**: فغالبًا ما ينظر الإنسان للآخرين من خلال ذاته.

٣. **أجواء السوء**: العناصر المنحرفة السيئة تجد نفسها معنية بتتبع العثرات والأخطاء التي تصدر من هذا وذاك، لتبرِّر لذاتها الانحراف، وحتى تتوجه الأنظار لأخطاء غيرهم، بدل التركيز عليهم، وأيضًا للتخفيف من وقع انحرافاتهم في الوسط الاجتماعي، ما دام غيرهم يشاركهم فيها.

٤. **الميل للمشاكسة**: الإنسان المهتم بكسب محبّة الآخرين، يحرص على توفير فرص الانفتاح عليهم والاقتراب منهم، لذلك يربّي نفسه على التعاطي الإيجابي مع الآخرين، بدءًا من النظر إليهم، والتفسير لأعمالهم ومواقفهم، عدا الحالات التي يتأكد عدم صلاحها. أما

الإنسان المعقّد، والذي يميل إلى المشاكسة والمنازعة، فإنه يرمق الآخرين دائمًا بنظرات الشكّ والرّيب، ليبرّر بذلك مشاكسته لهم، وإبداء الإساءة تجاههم»[١].

بعد هذه الالتفاتة المهمّة بخصوص الارتياب كجذر من جذور مأزق التعصّب الذي يعتبر المهدّد الرئيس لانبعاث الوعي الثقافي بقيمة الانفتاح في أيّ مجتمع من المجتمعات يتطلّع للنهوض والرقي والتجديد والإصلاح، نكتفي بالإشارة إلى بعض الفقرات من كتابات سماحة الشيخ بخصوص قضية التعصّب، لنحاول التركيز على تحليلاته الاستراتيجية فيما يتعلّق بالمواجهة والمعالجة للأمراض التخلّفية السائدة والمثبطة لقيم التمدّن والوفاق والوحدة بين شرائح الأمة.

يُعبِّر الشيخ الصفار عن التعصّب بالقول: «إن التعصّب داء وبيل، ومرض فتّاك خطير، يمنع الفكر من اكتشاف الحقائق، ويفقد الإنسان القدرة على التعايش والانسجام مع الآخرين، إنه يجعل الإنسان مستمتعًا بجهله، محرومًا من استثمار قدرات عقله، رافضًا للتكامل والتعاطي مع أنداده، من أبناء جنسه ومجتمعه... إنّ نمو اتجاهات تعصّبية في الأمة يكشف عن خلل فكري، وعن مشكل اجتماعي، لا بُدَّ أن يتداركه قادة الأمّة المخلصون، ومفكّروها الواعون، قبل أن يستشريَ المرض أكثر في أوصال الأمّة، وتزداد أخطاره ومضاعفاته، وحتى لا تبقى مظاهر هذه الاتجاهات مستمسكات بيد أعداء الأمة، يستغلونها لتشويه سمعة

(١) ن.م، ص ٥٦ ـ ٦٠.

الإسلام والمسلمين»[١].

ويضيف الشيخ الصفار: «تارة يكون التعصّب حالة فردية يبتلى بها بعض الأشخاص، لأسباب وعوامل خاصة، وأخرى يكون التعصّب اتجاهًا وتيّارًا في المجتمع، له ثقافته ورموزه وكياناته، وذلك هو ما ينذر بأخطار وأضرار كبيرة، على مختلف الأصعدة من حياة المجتمع.

فأولاً: تصبح فئة من أبناء المجتمع ضمن هذا الاتجاه التعصّبي عناصر معقّدة، تنمو في نفوسهم نوازع الحقد والشر، وتتجه طاقاتهم نحو الهدم والتخريب ...

ثانيًا: مع نمو الاتجاهات التعصّبية يفقد المجتمع وحدته واستقراره ...

ثالثًا: تُشوِّه الاتجاهات التعصّبية سمعة الجهة التي تنتمي إليها، من عرق أو دين أو مجتمع أو وطن، فتضطرب علاقاتها مع الجهات الأخرى، وقد يتورط المجتمع بكامله في صراع ونزاع مع مجتمعات أخرى، لوجود اتجاه تعصّبي في أوساطه».[٢]

ومما يهمّ في الموضوع هو معرفة منابع التعصّب أو أسبابه وكيفية مواجهته، ويبدو لي أن الشيخ الصفار قد نبّه لأحد المنابع ـ التي أراها ـ رئيسة للتعصّب: «ومن الأمراض النفسية الخطيرة ما يُشعل نار العداوة،

(١) كتاب: الحوار والانفتاح على الآخر، ص٦٣، دار الهادي ط١ ، ٢٠٠٤.
(٢) ن.م ،ص٧٣ ـ ٧٤.

ويؤجّج لهيبها، ويجعل الإنسان في صدام دائم مع الآخرين، فيشقى هو بذلك أولاً، ويسبّب المشاكل والمتاعب لمن يقع عليه أذاه.

وفي رأس قائمة تلك الأمراض الفتّاكة: الحسد.

قد يكون الحسد مرضًا فرديًّا محدودًا يبتلى به بعض الأفراد من المجتمع، فيصطلون بنار أضراره وشقائه، وقد يكون ظاهرة سائدة في بعض المجتمعات، تبرز أعراضه ومضاعفاته على مستوى العلاقات بين أفراد المجتمع وفئاته»[1].

وفي تحليل آخر لظاهرة التعصّب، يطرح سماحته فكرة جوهرية دقيقة ترتبط بعمق حركة التواصل الثقافي بين أفراد الأمة وتحديدًا بين مفكّريها وعلمائها ومثقفيها من مختلف المذاهب والتيارات، وحسب بيداغوجيته التحليلية للأمور يعقّب قائلًا: «فهناك أكثر من مؤتمر ولقاء يعقد كل عام في مختلف أنحاء العالم، لتناول قضايا الإسلام وأوضاع الأمة، وهناك عدد من المجلات الفكرية الثقافية، العامة والمتخصصة التي يشارك في تحريرها كتّاب من مختلف الاتجاهات والمذاهب في الأمة.

لكنّ مجال البحوث العقدية، وميدان علم الكلام، هو ما تشكو فيه حركة التواصل المعرفي بين مذاهب الأمة وتياراتها من الخمول والركود.

حيث لا زال هذا الميدان ساحة للصراع، ومعتركًا للنزاع، تسود

(١) كتاب: التسامح وثقافة الاختلاف، ص٦٥ ـ ٧٢، ط١، دار المحجة البيضاء ودار الواحة، ٢٠٠٢.

أجواءه حالة التوتر، وتسيطر على حركته حالة التشنج.

ويبدو لي أن العلماء الناضجين في الأمة لم يولوا هذا المجال ما يستحق من عناية واهتمام، وتركوه لتفاعلات تراث العصور الماضية، بما فيه من خصومات وخلافات، فأصبح ساحة للقوى المتطرفة المتعصبة من مختلف المدارس والمذاهب.

وأكبر شاهد على ذلك كتابات التهريج ضد هذا المذهب أو ذاك، وفتاوى التكفير ضد هذه الطائفة أو تلك، والمناظرات غير العلمية التي تبثها الفضائيات والمشتملة على كثير من الإثارات والمهاترات التي تؤجّج نار العداوة والبغضاء بين المسلمين.(١)

ويختزل الشيخ الصفار أساسًا ظاهرة التعصّب كالآتي: «تنمو جذور التعصّب في أرضية الجهل والانغلاق، حيث تتأسّس القناعات، وتتخذ المواقف، بناء على تصورات خاطئة، وتقويمات نمطية، ونظرات ناقصة، وفي أجواء انفعالية تعبوية.

ويحرص قادة الاتجاهات التعصّبية على إبقاء أتباعهم في ظروف كهفية انطوائية، بعيدًا عن وسائل المعرفة الحرّة، وتأثيرات الرأي الآخر، ويصنعون حولهم سياجًا من المحرّمات والمحظورات، فالاطّلاع على كتب الآخرين حرام؛ لأنها كتب ضلال، ومخالطة الآخرين إثم باعتبارهم مبتدعة.

(١) كتاب: الأحادية الفكرية في الساحة الدينية، ص٤١ ـ ٤٢، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط١، ٢٠٠٨.

كـما يجـري ترويض عقولهـم وأفكارهـم، لمنعها من الحركة والنشـاط خارج سـياق ما يلقّنونهم إيّاه، حيث لا يحقّ الاعتراض، لا يصحّ النقاش، فذلك نوع من التمرّد على الشرع، والتشكيك في النّص المقدّس.

وهكـذا تصبـح اجتهـادات بعـض أعـلام السّـلف، وقيـادات هـذه التوجّهـات، سـقفًا لا يمكـن تجـاوزه، ولا مجـال للعقـل في مناقشـتها، أو التفكير في بدائل لها.

وبمقـدار مـا تتسـع رقعة هـذا الجهل والانغـلاق، تتوفـر أرضية نمو الاتجاهـات التعصبية، وهنـا يأتي دور المعرفـة والثقافة، فانتشـارها وتوفّر مصادرها المتنوعة، يشكّل وقاية وحصانة لأبناء المجتمع من تأثير اتجاهات التعصّب، ويساعد في إنجاح جهود المعالجة والخلاص[1]».

ومـن بـين تجلّيات ظاهرة التعصّب الرئيسـة التي ناقشـها باسـتفاضة الشـيخ الصفار، إقصاء الآخر، التي أشرنا لها سابقًا، حيث يشير في إحدى تحليلاتـه لمأزق الأحادية الفكرية لقضية إقصاء الآخر: «إقصاء الآخر أزمة تعاني منها أغلب المجتمعات العربية والإسـلامية، لكنها تتفاوت في درجة الكثافـة والشّـدة. وترتبـط هـذه الأزمة بثلاثـة عوامل أسـاس، تنتج هذه الأزمة وتغذّيها وتفرضها على المجتمع:

العامل الأول: الفهـم الديني السّـائد في هـذه المجتمعات الـذي يَعُدّ الرأي الآخر ضلالاً ومنكرًا تجب محاربته وإزالته.

(١) كتاب: الحوار والانفتاح على الآخر، ص ٨١.

العامل الثاني: سياسات الأنظمة الحاكمة التي ترفض وجود الرأي الآخر المختلف مع توجّهاتها ومواقفها، وهذا ما مارسته شتّى الأنظمة في البلاد العربية والإسلامية...

العامل الثالث: فيتمثل في التربية والأعراف الاجتماعية التي تربّي الفرد على أساس أن إبداء الرأي المخالف للأب أو لشيخ القبيلة أو للرئيس في الإدارة أو لعالم الدين هو إساءة أدب وعدم احترام وتقدير. وقد تترتب عليه ردود فعل غاضبة وإجراءات عقاب.»[1]

قبل الانتقال إلى سبل التخلص من داء التعصّب، كما يراها الشيخ الصفار، لا بُدَّ من الوقوف على النظرة الدينية لظاهرة التعصّب، حيث وضع النقاط على الحروف من خلال إثارته لتساؤل جوهريّ ومهمّ في رسم التعامل مع ظاهرة التعصّب، من خلال طرح عنوان بصورة مساءلة للواقع الديني: الدّين، هل ينتج تعصّبًا؟

ثم ـ كعادته ـ ينطلق في رسم المنهج والأسلوب في الإجابة عن هذا السؤال:

«أنْ يتمسك الإنسان بدينه الذي اختاره بقناعة وإدراك، وأن يلتزم بتعاليمه وأحكامه، فذلك أمر مرغوب ومطلوب، وإذا اعتبر ذلك تعصّبًا

(١) كتاب الأحادية الفكرية في الساحة الدينية، ص٧٩ ـ ٨٠، ط١ سنة ٢٠٠٨ الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت.

فهو من النوع الإيجابي، كما يقول الإمام عليّ عليه السلام: «فليكن تعصّبكم لمكارم الخصال ومحامد الأفعال، ومحاسن الأمور».[١]...

ويضيف سماحته: إنه يمكن القول بجزم، أن الدين في مفاهيمه وتعاليمه الواقعية، التي أوحى بها اللّه تعالى لأنبيائه، لا يمكن أن يسمح أو يجيز حالة من التعصّب العدائي ضدّ أحد من أبناء البشر، إلا أن يكون معتديًا ظالماً.

فالبشر خلق اللّه وهو تعالى رحيم بعباده، وقد منحهم حرية الإرادة والاختيار، ولا يرضى أن يصادر أحد هذه الحرية من الناس، لذلك فحدود صلاحيّات الرسل والأنبياء هي التذكير والتبليغ، ولا حقّ لهم في الفرض والإكراه، يقول تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾[سورة الغاشية الآيتان ٢١، ٢٢]، ويقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾[سورة يونس الآية ٩٩].

ولقد منح اللّه تعالى البشر حقّ الكرامة، ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ادَمَ﴾[سورة الإسراء الآية ٧٠].

حيث يؤكد سماحته: «ومنهج الأنبياء في الدعوة إلى اللّه قائم على أساس مخاطبة العقل والوجدان، واستخدام أفضل أساليب الجذب والاستقطاب، بالكلمة الطيبة، والأخلاق الحسنة، والتعامل اللائق:

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة، خطبة ١٩٢.

﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[سورة النحل الآية ١٢٥]... فسلوكيات الحقد والازدراء والإساءة للآخرين، تتناقض تمامًا مع مفاهيم الدين وتعاليمه، وإذا كان المنظّرون لهذه الاتجاهات التعصّبية، يستدلّون ببعض النصوص الدينية، لتبرير توجّهاتهم وممارساتهم، فإن الإشكال في فهمهم وقراءتهم لهذه النصوص، وفي التعامل معها منفصلة عن منظومة القيم والمفاهيم الإسلامية.

وقد تكون لبعضهم نوازع سيئة يستغلّون النّصوص ويوظّفونها لتبريرها وتمريرها، لكن قيم الدين ومبادئه الأساسية ترفض هذه التوجّهات، فاللّه تعالى لا يقبل الظلم والعدوان، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ، قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾[سورة الأعراف الآيتان ٢٨، ٢٩]...

ويستطرد الشيخ الصفار في الإجابة عن السؤال السابق بقوله: «وما نلحظه من هذه الممارسات التعصّبية، من قبل بعض الفئات المنتمية إلى الحالة الدينية الإسلامية، يشكّل كارثة في تاريخ الإسلام والمسلمين المعاصر. لقد غرّرت هذه التوجّهات التعصّبية بمجاميع من أبناء المسلمين، وخاصّة الشباب، لتقذف بهم في أتون معارك خاسرة، داخلية وخارجية، انطلاقًا من تصوّرات قاتمة سوداء، ومشاعر سلبية بغيضة، تجاه مجتمعاتهم والعالم.

وأشعلت هذه التوجّهات نار الفتنة الداخلية بين المسلمين، عبر إثارة النّزاعات الطائفية المذهبية، وابتذال فتاوى التكفير واتّهام الناس في أديانهم، ورميهم بالشرك والابتداع، لمجرّد الاختلاف في الرأي والاجتهاد، ونتج عن ذلك ظهور جماعات عنف وإرهاب، تنتهك الحرمات، وتسفك الدماء، وتنشر الرعب والاضطراب في بلاد المسلمين. كما وفّرت هذه التوجّهات التعصّبية، أفضل فرص لتشويه سمعة الإسلام والمسلمين على مستوى العالم، وإرباك علاقات الدول والمجتمعات الإسلامية بسائر الأمم والقوى الدولية. ومؤلم جدًّا أن يقترن اسم الإسلام بالإرهاب على الصّعيد العالمي، وتتخذ مختلف دول العالم إجراءات مشدّدة تجاه المؤسّسات والأنشطة الإسلامية وتجاه الرّعايا المسلمين»[1].

خارطة مواجهة التعصب:

بعد التطرّق للمسبّبات والمؤثرات والتجليات الخاصّة بظاهرة التعصّب، ننتقل للوقوف في رحاب بعض رؤى الشيخ الصفار على الوصفة المثلى للتخلص (من/ أو) مواجهة ظاهرة التعصّب.

حيث يؤكّد: «لقد أسهمت عوامل مختلفة داخلية وخارجية في صنع الظاهرة التعصبية، وفي تغذيتها وتنميتها، مما أتاح لها التجذّر والتغلغل في كثير من البقاع والأوساط، ووفر لها مستوى هائلًا من القدرات والإمكانات.

(١) كتاب الحوار والانفتاح على الآخر، م س، من ص٧٤ إلى ٧٧.

وعلى أساس هذا الواقع يضيف: «ولا بُدَّ من تضافر الجهود الواعية واستنفار القوى المخلصة، لمواجهة هذه الظاهرة الخطيرة، التي تهدّد مستقبل الإسلام والأمة، بما تسبّبه من انقسام وتمزّق داخلي، ومن تقويض للأمن الاجتماعي، وتعويق للتنمية، وتأجيج لصراع الحضارات بين الإسلام وسائر الأمم.

أما فيما يخصّ خارطة المواجهة، فلقد حاولت من خلال كتابات الشيخ الصفار، استجماع الخطوط العريضة التي يجب العمل على تفعيلها لصدّ تسونامي الظاهرة التعصّبية في عمق واقعنا الاجتماعي العام، حيث من بينها ما يلي:

- تحرير مناهج التربية العائلية والبرامج التعليمية من تنمية الاتجاه الواحدي.
- بعث مفاهيم الإسلام حول أصول التعامل الإنساني، وضوابط العلاقات الاجتماعية.
- مسؤولية القانون في وضع حدّ للخطابات التعبوية التحريضية المثيرة للفتن والانقسام، والمهدّدة لأمن المجتمع واستقراره ولمنع أيّ ممارسات تمييزية بين المواطنين.[1]
- تعزيز الأمن الفكري والأخلاقي وحماية الأسرة ثقافيًّا عبر تشريع

(١) ن.م، ص٧٨ إلى ٨٠.

العمل الأهلي القائم على أساس التوازن والعدالة الحقوقية.[١]

- سعي مختلف الجهات والفئات إلى تقديم نفسها، وعرض آرائها ومواقفها، وأن تتيح الحكومات فرصة كافية لمختلف المذاهب والتوجّهات لتعبّر عن نفسها، عبر مؤسسات أهلية تتكفّل بإدارة مشروع التعارف بين التوجّهات والمدارس والمذاهب.[٢]
- مسؤولية الدولة على تفعيل مبدأ المساواة بين المواطنين ونشر ثقافة التسامح وتجريم ثقافة الكراهية والتحريض عليها.[٣]
- مسؤولية النخبة المثقفة على التبشير بثقافة التسامح وقبول التعدّدية والرأي الآخر وإدانة حالات التمييز عمليًّا والمطالبة بتجريم هذه الحالة.[٤]
- دور القيادات الدينية في تنمية النقد البنّاء بين مكونات المجتمع كبديل عن التهريج والتعبئة بين الأطراف المختلفة، ودفعهم لإيصال نقدهم وملاحظاتهم لعلماء الدين، وأن يجهروا لهم بالآراء الناقدة، ما دام الهدف هو الإصلاح وحماية المصلحة الدينية.[٥]

(١) دراسة بعنوان: المؤسسات الأهلية وحماية الأمن الاجتماعي.
(٢) م. س، كتاب كيف نقرأ الآخر؟، ص ٤٥ ـ ٤٦.
(٣) م. س، كتاب المشكل الطائفي والمسؤولية الوطنية، ص٢٥.
(٤) ن.م، ص ٢٩.
(٥) كتاب القيادات الدينية: الخطاب والأداء الاجتماعي على ضوء مصادر الشيعة الإمامية، ص ٢١، ط١، أطياف للنشر، ٢٠١٢.

- تعزيـز واقـع العلاقـات الاجتماعيـة بتنميـة ثقافـة الاعتـذار من الأخطاء وقبوله لميلاد مجتمع راشد.[١]
- محاربة الغرور الديني والطائفي وبعث روح التجديد.[٢]

العبور إلى شاطئ التعايش:

الحقيقـة التي يمكننا أن نسـتوحيها من خلال كتابات الشـيخ الصفار والتواصل معه بالنسـبة للقراء وممن عرفوه شـخصيًّا، أنه شخصية إنسانية راقيـة، حيث يُجسِّـد ثقافة التعايـش واحترام الآخر والتعـارف والتواصل معه، أجمل تجسـيد، فثقافة التعايش عند سماحته كالقلب بالنسبة للمجتمع المتعدّد المتطلّع للرّقي والتقدم والتحضر والتمدن...

جـاء في كتابه المشـهور «التنـوع والتعايش: بحـث في تأصيل الوحدة الاجتماعية والوطنية»، تساؤل دقيق تعقيبًا على واقع المجتمعات الإسلامية ومعها المجتمعات النامية الباقية في عالم يرنو للوحدة والاتحاد: «متى وكيف تستطيع هذه المجتمعات تحسين واقعها وتجاوز الحالة المأساوية؟

ثم يؤسِّس سماحته للخلاص بقوله: «إن أول خطوة تضعنا على طريق التنميـة والتقـدم، هي امتـلاك إرادة التعايش والقدرة عـلى تحقيقه. فإذا ما اعترف بعضنا ببعض، واحترم كل واحد منا الآخر، وأقر بشراكته ودوره، حينئـذٍ يمكننا العمـل معًا لتجاوز حالة التخلّـف العميق والانطلاق نحو

(١) م.س، كتاب التسامح وثقافة الاختلاف، ص ١٥٥ ـ ١٩١.
(٢) م.س، كتاب الحوار والانفتاح على الآخر، ص ٩٣ ـ ١٣٣.

أفق الحضارة الواسع»[1].

لقد استعرض الملامح الرئيسة لكلّ ما يتعلق ببحث موضوع التنوع وعلاقته بعنوان التعايش، راصدًا كلّ الخيارات المحتملة بخصوص التنوع المذهبي في الواقع الإسلامي، حيث تناول علاقة التنوع بالتعايش من جهة، والوحدة الوطنية بالتعايش من جهة أخرى، وفي عموم مطارحاته ومضامينها يضع المسلم الحرّ أمام المحكّ المذهبي والفريضة القرآنية المتمثلة في الوحدة: «حينما يكون الانتماء المذهبي للمواطنين المسلمين متنوعاً، فإن أمامهم أحد خيارات ثلاثة، للتعاطي مع هذا التنوع والتعدّد:

الخيار الأول: محاولة الفرض والإلزام، بأن يسعى أتباع كلّ مذهب لفرض مذهبهم على الآخرين، وإلزامهم بأخذه والتعبّد به؛ لأن أتباع كل مذهب يعتقدون بأحقيّة مذهبهم، ويرون أنفسهم مكلّفين بنشره وتطبيقه. وهذا الخيار مشكل من الناحية الشرعية؛ لأن المعتقد، وطريقة التعبّد، لا يصحّ فرضها بالإكراه ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[سورة البقرة: الآية٢٥٦] بل يجب أن يكون عن قناعة، واندفاع ذاتي، كما أن الشرع لا يجيز للمسلم أن يفرض على الآخرين ما لا يعتقدونه، ويؤمنون به، فاللَّه تعالى لم يُعْطِ لنبيه ﷺ هذا الحقّ وإنما قال له: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾[سورة الغاشية، الآيتان:

(١) كتاب: التنوع والتعايش، بحث في تأصيل الوحدة الاجتماعية والوطنية، ص١٥، ط١، دار الساقي، بيروت، ١٩٩٩.

٢١ـ٢٢] ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾[سورة يونس، الآية: ٩٩].

ومن الناحية العملية، فإن كلّ تجارب فرض الأفكار والمعتقدات، هي تجارب فاشلة، حيث يتمسك الناس بأديانهم ومذاهبهم أكثر في حالة التحدي والمواجهة، وواقع الشعوب الإسلامية في البلدان التي كانت تهيمن عليها الشيوعية أوضح شاهد على ذلك. كما إن مثل هذه المحاولات حصلت في تاريخنا بعض الفترات، حيث حاولت بعض الجهات فرض رأيها أو مذهبها لأنها تمثل الأكثرية، أو تمتلك القدرة والقوة، لكن تأثير تلك المحاولات كان وقتيًّا ومحدودًا.

الخيار الثاني: حالة العداء والصراع: حيث يتحصّن أتباع كل مذهب في خندق مذهبهم، ويعبئون أفرادهم تجاه المذهب الآخر، وتسود حالة التشنج والعداء، ويكون هناك قطيعة وتنافر، وتقوم الجهة المقتدرة باضطهاد الجهة الأخرى، التي ستعمل بدورها للدفاع عن نفسها، وللانتقام من الطرف الآخر.. وهكذا يدخل المجتمع في نفق الصراع الداخلي، الذي قد ينتهي إلى حرب أهلية. وهنا يخسر الجميع، وتكون الفرصة مؤاتية للأعداء، أعداء الإسلام، وأعداء البلاد، لينفّذوا من خلال هذا الصراع مخطّطاتهم ومؤامراتهم.

الخيار الثالث: هو التعايش بأن يعترف كل طرف للآخر بحقّه في التمسك بقناعاته ومعتقداته، وممارسة شعائره الدينية، والعمل وفق اجتهاداته المذهبية، ويتعامل الجميع كمواطنين متساويين في الحقوق والواجبات، متعاونين لتحقيق المصلحة العامة ومواجهة الأخطار المشتركة. وهذا هو ما يأمر به الإسلام، وتدعو إليه تعاليمه السمحاء، وهو منهج أئمة الإسلام، وأعلام المسلمين الواعين المخلصين. وأيضًا هو ما يدعو إليه العقل والمنطق السليم، وتفرضه طبيعة الاشتراك في ظروف حياتية واحدة، وضمن وطنٍ واحد، وكما يقول الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام: «صلاح شأن الناس التعايش»[1]»[2].

ويرى سماحته «أن فكرة التعايش هي مدخل لفكرة التقارب والوحدة، وهي التي تهيّئ الأرضية للقبول بها»[3].

ومن ثم، بنباهة العالم العارف بزمانه المستوعب لمسؤوليته، يشير سماحته إلى أهمّ محطات العبور إلى شاطئ التعايش: «التعايش السّلمي، على أساس الاعتراف والاحترام المتبادل، وحفظ الحقوق الإنسانية

(١) بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، ج٧١ ص١٦٧، دار إحياء التراث العربي، بيروت سنة ١٩٨٣.

(٢) م.س، كتاب: التنوع والتعايش، بحث في تأصيل الوحدة الاجتماعية والوطنية، ص ٩٢ ـ ٩٤.

(٣) م.س، كتاب: الطائفية بين السياسة والدين، ص١٦١.

والوطنيـة، ونبذ المشـاحنات والمهاترات المذهبيـة والطائفية، والتأكيد على حرمة دم كلّ مسـلم سنيًّا كان أو شيعيًّا، وحرمة عرضه وماله، والتبرؤ من كلّ من يسفك دمًا حرامًا، أيًّا كان صاحبه»[١].

وعـلى نفـس المنـوال، يواصل بعث الوعـي بمطلـب التعايش، حيث يطرح تسـاؤلًا موضوعيًّا شـاملًا، يحرّك عدّة مقاربات مهمّة لدى المسـلم المهتم بأمور أمّته: «كيف ترتقي مجتمعاتنا إلى مستوى التعايش الحضاري؟ وكيف تتسـامى على عوامل الخلاف والتمزق، وأسباب القطيعة والتنافر؟ وكيـف يكـون تنوّعنا وتعـدد انتماءاتنـا إثـراءً لتجاربنا، وإنضاجًـا لآرائنا وأفكارنا؟

ثـم يجيـب بـكلّ وضـوح ودقّـة وموضوعيـة: إن المسـؤولية تقع على الجميع، فكلّكم راعٍ وكلّكم مسـؤول عن رعيّته، كما يقول الحديث النبوي الشريف.

وبالدرجـة الأولى، فـإن الحاكمـين في البـلاد الإسـلامية يتحمّلـون مسـؤولية رئيسـة في توحيد شـعوبهم، وتوفير أجواء التعايش والانسجام فيما بينهم، على أسـاس الحقّ والعدل، ومنع أيّ تمييز قومي أو طائفي. فقد روي عن رسول اللّه ﷺ قوله: «خير الولاة من جمع المختلف، وشرّ الولاة من فرّق المؤتلف»[٢].

---

(١) ن.م، ص ٥٧.

(٢) السبيل إلى إنهاض المسلمين، السيد محمد الحسيني الشيرازي، ط٧ ص ٣١٢، مؤسسة الفكر الإسلامي، بيروت سنة ١٩٩٤م.

وعلماء الدين ينتظر منهم القيام بأهم دور في الدعوة إلى الوحدة والوئام، وتحذير الناس من النّعرات القومية، والفتن الطائفية، ولا يجوز أبدًا أن يمارس عالم الدين دور إذكاء روح التعصّب المذهبي، بمبرّرات واهية زائفة، ذلك «أن اللّه سبحانه لم يعط أحدًا بفرقة خيرًا ممن مضى ولا ممن بقي»[١]، كما يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، ويقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «فلا تخاصموا الناس لدينكم فإن المخاصمة ممرضة للقلب»[٢].

وعلى رجال الفكر والإعلام أن يوجّهوا أقلامهم وجهودهم لإشاعة روح التسامح والتقارب، ومحاربة توجّهات التشدّد والتطرف، التي يُغذّيها الأعداء، وينمّيها الجهل والغباء.

وأخيرًا، فإنّ كلّ مواطن واعٍ يجب أن يتحمّل مسؤوليته في صنع الوحدة الوطنية الإسلامية، بسلوكه القويم، وتعامله السليم، مع سائر إخوانه المواطنين، فالصّراع والتناحر يهدّدان مستقبل الوطن، ويضرّان بمصلحة الشعب، وصدق اللّه العظيم إذ قال: ﴿وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [سورة الأنفال، الآية:٤٦]»[٣].

---

(١) نهج البلاغة، الشريف الرضي، خطبة رقم ١٧٦.
(٢) م.س، بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، ج٢ ص١٣٣.
(٣) م.س، كتاب: التنوع والتعايش، بحث في تأصيل الوحدة الاجتماعية والوطنية، ص ٩٥ـ٩٦.

معالم الانفتاح:

١. في البدء التعارف:

يؤسِّس الشيخ حسن الصفار، لتنظيم العلاقة مع الآخر بقاعدة التعارف: «إن الخطوة الأولى، والقاعدة الأساس، لتنظيم علاقة مع الآخر هي التعارف.

بأن يتعرّف كلّ من الطرفين على الآخر، وخاصة فيما يرتبط بزاوية التغاير والتمايز بينهما»[١].

ويشير في موضع آخر بالقول: «إن تعرّف كلّ أمة ودراستها لواقع الأمم الأخرى يثريان تجربتها، ويتيحان لها فرصة الاستفادة من نقاط قوة الآخرين، وتلافي مكامن الضعف لديهم.

لذلك يشير القرآن الكريم إلى حقيقة أن التنوع ينبغي أن يكون دافعًا للتعارف، بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُواْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [سورة الحجرات، الآية:١٣].

بَيْدَ أن الاهتمام بالتعارف بين الأقوام والأمم، إنما ينبثق من أرضية الاحترام المتبادل. أما حينما تستهين مجموعة بالآخرين، وتنظر إليهم نظرة احتقار وازدراء، ويمتلكها تجاههم الشعور بالتعالي، فإنها لن تتجه إلى استكشاف ما لدى الآخرين من نقاط القوة وصفات الخير. لذلك فإن

(١) م.س، كتاب: كيف نقرأ الآخر، ص٢١.

القرآن الحكيم يمهّد للدعوة إلى التعارف بإدانة نظرة السخرية التي سبقت تلك الآية قوله تعالى: ﴿يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ...﴾[سورة الحجرات، الآية:١١].

والكلام ليس عن سخرية شخص من شخص، وإن كان ذلك مرفوضًا ومدانًا، إلا أن الحديث هنا يأتي في سياق العلاقة والتعامل بين المجاميع ﴿قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾.

ويلفت القرآن الحكيم الأنظار إلى عدم الوقوف في تقويم الآخرين عند حدود المظاهر والحدود، بل يجب البحث عن الصفات الفاضلة والسمات الكريمة: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾»[1].

وتركيزًا لقاعدة التعارف وماهيتها في بناء وعي إسلاميّ بثقافة الانفتاح، يفتح آفاقًا استراتيجية مهمّة عبر تأملات قرآنية، «ذلك أن الجهل وسوء الفهم غالبًا ما يؤدّي إلى التباعد حذرًا، أو إلى النزاع والخصومة عداءً».

يقول تعالى: ﴿فَتَبَيَّنُواْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾[سورة الحجرات، الآية: ٦].

---

(١) م.س، كتاب: التنوع والتعايش، بحث في تأصيل الوحدة الاجتماعية والوطنية، ص ٤٤ ـ ٤٦.

وورد عن الإمام عليّ عليه السلام: «الناس أعداء ما جهلوا»[1].

إن المعرفة بالآخر تكشف لك نقاط قوته، ومكامن ضعفه، فتمكنك من الاستفادة منه وإفادته، وتبرز لك مناطق الاشتراك، ومواقع الاختلاف، بما يؤسّس للتعاون وتنمية العلاقات...

كما أن أول أمر بدأ به الوحي، حين نزل للمرة الأولى على رسول اللَّه صلى الله عليه وآله، هو الأمر بالقراءة، حيث اتفق المسلمون على أن أول القرآن هو قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ *خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ *اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ﴾[سورة العلق، الآيات:١ ـ ٣].

والقراءة المأمور بها ليست مجرّد عملية تتبّع الكلمات والنطق بها، أو قراءتها بالنظر، بل هي أعمق من ذلك، إنها تعني عملية التفكير والفهم، وهو المعنى الذي أصبح متداولاً في الأوساط الفكرية...

ولم يحدّد الوحي لفعل(اقرأ) مفعولاً، مما يؤيد أن المقصود لذات الممارسة والفعل، وأول ما يحتكّ به الإنسان ويحتاج لقراءته وفهمه، هو الوجود البشري الذي ينتسب إليه، فعليه أن يتأمّل التمايزات الهامّة بين فئات هذا الخلق، ليرى من خلال ذلك عظمة اللَّه تعالى وحكمته، لتنظيم حياته بإرساء علاقات سليمة مع من حوله.

وقراءة التمايزات بين أبناء البشر هو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذٰلِكَ

(١) م.س، نهج البلاغة، حكم ١٧٢.

لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾[سورة الروم، الآية: ٢٢]»[١].

وإحياءً لقيمة التعارف ينحو الشيخ الصفار منحًى جديدًا، حيث يدعو العلماء والمثقفين والباحثين إلى تحريك موضوعة التعارف في مجال حسّاس ومهمّ بالنسبة لأهداف قيمة التعارف في المجتمع الإنساني العام والإسلامي الخاصّ حيث يرشد إلى إثارة القضية العقدية لدى المسلمين عبر بوابة التعارف وليس المهاترات والجدالات المذهبية العقيمة كالآتي: «لاشك أن القضية العقدية هي الأكثر أهمية على المستوى الديني، فهي أساس الدين وجوهره وعمقه وأصله، كما أن لها تأثيرها الكبير على مشاعر الإنسان وتوجّهاته السلوكية والعملية.

وإذا كان التعارف والتواصل مطلوبًا بين أبناء الأمة في مختلف المجالات فهو في المجال العقدي أكثر أهميّة وفائدة.

و ذلك للأسباب التالية:

أولاً: يساعد المسلم على اكتشاف الحقّ ومعرفة الصّواب في مسائل العقيدة، عن طريق اطّلاعه على مختلف الآراء، وفهمه لأدلتها، فليس صحيحًا أن يسترسل الإنسان في معتقداته مع ما ورثه من آبائه وأجداده، أو ما ألفه في بيئته ومحيطه، دون بحث وتمحيص، ودليل وبرهان.

ثانيًا: إن القراءة الموضوعية لآراء الفِرَق والاتجاهات العقدية الأخرى،

(١) م.س، كتاب: كيف نقرأ الآخر، ص٢١ ـ ٢٣

تمكّن الإنسان من معرفة الآخرين على حقيقتهم وواقعهم، بينما تكون القطيعة المعرفية سببًا للجهل بالآخر، ورسم صورة غير دقيقة عن توجّهاته.

إن بعض المسلمين يسيئون الظنّ ببعضهم الآخر، ويحكمون عليهم أحكامًا جائرة، بناءً على مقدمات خاطئة، ومعلومات مغلوطة، قد تؤخذ عن طريق مناوئيهم وخصومهم.

وهذا ما حذّر منه القرآن الكريم: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًا بِجَهَٰلَةٍ﴾[سورة الحجرات، الآية: ٦]...

ثالثًا: إن التواصل العلمي، وتدارس القضايا بموضوعية وإخلاص، على أيّ صعيد ديني معرفي، يتيح المجال لبلورة الرأي، وتكامل الفكر، وحل العُقَد، ومعالجة الثغرات.

وكما يمكن التقارب والتكامل في معالجة قضايا الفقه والثقافة، فإنه يمكن الوصول إلى بعض المعالجات وتصحيح بعض الآراء في المسائل الكلامية والعقدية.

وبخاصّة أن بعض الخلافات كانت تغذّيها عوامل سياسية ومصلحية، في التاريخ الماضي، وقد تجاوزتها الأمة.

رابعًا: هناك مسائل جديدة في علم الكلام تشكّل تحدّيًا أمام العقيدة الإسلامية ككل، وهي تستوجب تعاونًا بين علماء الأمة

المتخصّصين من مختلف المذاهب، لتوضيح الرؤية الإسلامية تجاه هذه المسائل المطروحة في أذهان الجيل المسلم المعاصر.

لهذه الأسباب وغيرها، يتوجّب الاهتمام ببعث حركة علمية معرفية، للتواصل والانفتاح بين علماء الأمة المهتمين ببحوث العقيدة وعلم الكلام من مختلف المدارس والمذاهب»[١].

٢. ما بين الانفتاح وثقافة الحوار:

لا تكاد تخلو محاضرة أو إنتاج فكري أو بيان أو موقف لسماحة الشيخ الصفار، إلّا وللحوار ثقافة ومنهجًا ودعوةً ومشاركةً، حضورٌ طبيعيٌّ، وما من أحد عرف الشيخ إلّا واكتشف الروحية الحوارية الرائعة التي يتّسم بها سماحته عنوانًا أصيلًا في شخصيته العلمائية الاجتماعية، ولا شكّ أن كلّ من احتكّ بسماحته استفاد من منهجه الحواري الرّصين والمنظم في طرح الأفكار وأسلوب الاستشكال واللباقة في الاعتراض والنّباهة في التفاوض، وما إلى هنالك من آداب وأخلاق حوارية خاصّة بالشخصيات الاجتماعية المؤثّرة في مسارات مجتمعاتها وأممها من رجال فكر وثقافة ودين واجتماع سياسي وغيره، ناهيك عن مشاركاته المتعددة في الفعاليات الفكرية والعلمية عبر العالم[٢]...

لذلك، ومن خلال القراءات الدقيقة لفكر الشيخ الصفار، نلحظ

(١) م.س، كتاب: الأحادية الفكرية في الساحة الدينية، ص٤٢ ـ ٤٤.
(٢) يكفي العودة لموقع سماحة الشيخ حسن الصفار الالكتروني:www.saffar.org، عبر نوافذ (الأخبار، الحوارات، الندوات).

تأكيده على أهمية واستراتيجية تكريس ثقافة الحوار على المستويين الشخصيّ والاجتماعيّ كتنمية لثقافة الانفتاح، حيث يرى سماحته أن: «من أهم سبل البحث عن الحقّ، الانفتاح على الرأي الآخر ومحاورته، وللحوار أكثر من قيمة ودور على الصعيد المعرفي... فالحوار يدفع للمراجعة، وأن يتفحص الإنسان آراءه ومواقفه في معرض حواره مع الآخرين، ومواجهته لتساؤلاتهم ونقدهم، فيتأكّد حينئذٍ من صحة رأيه وثباته أمام الاعتراض، وقد يكتشف بعض الثغرات ونقاط الضعف في وجهة نظره خلال الحوار، فيسعى لمعالجتها وتجاوزها ...

ويتيح الحوار للإنسان فرصة الاطّلاع على الرأي الآخر، بشكل مباشر واضح، فعادة ما يصاحب الاختلافات الفكرية، صراعات ونزاعات، تؤدّي إلى التعتيم على رأي كلّ طرف في ساحة الطرف الآخر وتشويهه، وتحريفه، ونقله مبتورًا مضطربًا، وحين يطّلع الإنسان على الرأي من منابعه، وينفتح على مصادره، ويناقش أصحابه مباشرة، تكون الرؤية أمامه أوضح وأجلى...»[1].

ويضيف سماحته: «إذا كان الإنسان مهتمًّا بتعزيز موقعية الرأي الذي يتبنّاه، والدّعوة له والتبشير به، فإن الحوار مع الآخرين هو أفضل الطّرق لكسبهم وإقناعهم، أو على الأقلّ لتحييدهم، ولإعطائهم صورة واقعية بدل أن تصلهم صورة مشوّهة ناقصة من جهات أخرى. لقد اعتمد الأنبياء منهجية الحوار في عرض رسالتهم على أقوامهم، وفي نقد اتجاهات الكفر

(١) م.س، كتاب: الحوار والانفتاح على الآخر، ص٣٤ ـ ٣٥.

والفساد لدى تلك الأقوام...كما أفرد القرآن مساحة واسعة للحديث عن جهود النبي محمّد ﷺ في تبليغ الرسالة بالتخاطب مع المشركين واليهود والنصارى، محاورتهم والرّد على إشكالاتهم وتساؤلاتهم، كما ينقل لنا تاريخ الدعوة الإسلامية كيف كان ﷺ يعرض نفسه على القبائل، مبيّنًا دعوته، مدافعًا عن رسالته بالحكمة والموعظة الحسنة».[1]

كما يُعدّد الشيخ الصفار ثمار انتشار ثقافة الحوار في المجتمعات: «يسهم الحوار في تنشيط ثقافة المعرفة والثقافة في المجتمع، ويدفع الناس للتفكير والبحث والمقارنة، وقد تترشّد الاتجاهات المتحاورة من خلال الحوار... وتتراكم التجارب عبر التفاعل الحواري.

ويؤدّي الحوار وظيفة مهمّة على صعيد الاستقرار والسلم الاجتماعي، ذلك لأن قسمًا كبيرًا من المشاكل والأزمات في العلاقات الاجتماعية، تنشأ من جهل الناس ببعضهم بعضًا، وتصوّر كل طرف الآخر على غير حقيقته!، وذلك بسبب التباعد والقطيعة، أو لحدوث سوء ظنّ أو سوء فهم في البين...

أو على الأقل فإن الحوار يخفّف حدّة التوتّر ويمتصّ حالة التشنّج والانفعال، وما نراه من استقرار سياسي واجتماعي في المجتمعات الغربية، ليس لعدم وجود اختلافات بينهم في الرأي والمصلحة، ولا لعدم حدوث مشاكل وأزمات في بلدانهم، بل قد يكون التّعدد والتنوع

(١) ن.م، ص٣٦ـ٣٨.

عندهم في الأعراق والديانات والمذاهب والأحزاب، أكثر مما عندنا بكثير، وتنافسهم على المصالح والمكاسب كبير، لكنهم ينعمون بوجود مؤسّسات ديمقراطية على الصعيد السياسي والاجتماعي، يناقشون في إطارها الأمور، ويعالجون المشاكل، ويحتوون الأزمات، فالحوار بين وجهات النظر المختلفة والأطراف المتنافسة، أصبح جزءًا من نظام حياتهم، في الإدارة السياسية، العمل الاجتماعي، والمؤسّسات العلمية، وفي وسائل الإعلام.

بينما تفتقر أغلب مجتمعات العالم الثالث إلى أدنى فرص الحوار، لذلك تعاني من حالات الاحتقان، وتعيش أخطار التمزّق والاحتراب»[1].

أما عن موقعيّة الحوار في منظومتنا الإسلامية يعبّر سماحته بالقول: «حينما يتأمّل المسلمون تعاليم دينهم يجدون فيها الأمر بالتشاور وتبادل وجهات النظر: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾[سورة آل عمران، الآية: ١٥٩]، ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[سورة شورى، الآية: ٣٨]، وأن قضية بسيطة كفطام الطفل عن حليب أمّه ينبغي أن يتم بالتفاهم بين الوالدين: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾[سورة البقرة، الآية: ٢٣٣].

وأن الخلافات العائلية بين الزوجين إذا لم تعالج بينهما يأتي دور أسرتيهما في الحوار من أجل حلّ النزاع: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَآ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً﴾[سورة النساء، الآية: ٣٥].

(١) ن.م، ص٣٨ ـ ٣٩.

وحينما يتصفّح المسلمون سيرة أئمة الدين فيرون منهجهم في ممارسة الحوار مع كل المستويات وفي كافّة المجالات، مع الحكام، ومع أتباع الأديان الأخرى، ومع أصحاب المذاهب، ومع تلامذتهم، ومع جمهور الناس وعامّتهم.. وقد قام الشيخ أحمد بن علي الطبرسي، من علماء القرن السادس للّهجرة، بمبادرة نافعة، إذ جمع عددًا كبيرًا من حوارات رسول اللّه ﷺ والأئمة من آل بيته عليهم السلام في كتاب ضخم تحت عنوان: الاحتجاج، طبع عدّة مرات في العراق وإيران ولبنان.

حينما يقرأ المسلمون كلّ ذلك فإنه يجب أن يدفعهم إلى انتهاج طريق الحوار، وأن يعتمدوه أسلوبًا لحياتهم، ونظامًا في علاقاتهم الاجتماعية...»[1].

وينبّه الشيخ الصفار أيضًا لبعدٍ آخر يتعلّق بثقافة الحوار: «لكن أزمة الحوار في مجتمعاتنا لا تتمثل في غيابه فقط، وإنما أيضًا في سوء إدارته عند من يمارسونه...

وهنا تظهر قيمة البحوث والبرامج المعدّة لتنمية مهارات التفاوض والحوار، وتتجلّى أهمية أخلاقيات الحوار التي تتحدّث عنها النصوص الدينية وآيات وروايات. إن الإدارة السيئة للحوار قد تنتج مضاعفات عكسية، فتوسع هُوّة الخلاف، وترفع درجة التشنّج، وتزيد حالة التّنافر والصّراع...»[2].

(١) م.س، كتاب: الحوار والانفتاح على الآخر، ص٣٩ـ ٤٠.
(٢) ن.م، ص ٤٤.

ويرشد سماحته إلى عدّة أبعاد لا بُدّ مراعاتها لتكريس ثقافة الحوار الخلّاقة للوعي واللقاء والانفتاح الإيجابي من أجل العيش المشترك، نذكرها باختصار:

«إنّ سلامة المقصد والاستهدافات من عملية الحوار ركن أساسيّ لتحقيق نجاحه، كما سبق الحديث عن ذلك، وفي ما يلي عرض لأهمّ الأركان في أخلاقيات الحوار:

- موضوعية البحث ومنهجيته.
- الاحترام المتبادل.
- البحث عن نقاط اللقاء.
- القبول بالتعددية والرأي الآخر.»[1].

٣. تنمية ثقافة التسامح:

يؤكد دائمًا الشيخ الصفار في تفاصيل مشروعه الإصلاحي الثقافي للأمة على المواظبة في إحياء قيمة التسامح بين المسلمين، حيث يؤصّل لذلك عبر تحليله لمهمّة الدين في حياة الإنسان: «للدين مهمّتان رئيسيتان في حياة الإنسان:

الأولى: تنظيم علاقة الإنسان مع ربه، بأن يتعرف على خالقه، ويؤمن به وبوحدانيته، ويلتزم بعبادته والخضوع له،﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللَّه﴾[سورة النحل، الآية: ٣٦].

(١) ن.م، ص ٥٠ ـ ٥٩.

الثانية: تنظيم علاقة الإنسان مع أبناء جنسه، بحيث تكون قائمة على العدل، والاحترام المتبادل للحقوق ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [سورة الحديد، الآية: ٢٥].

فعلاقة الإنسان مع النّاس قضية جوهرية من صميم الدين، وهي ليست متروكة لمزاج الإنسان وأهوائه، فلست حرًّا في أن تتعامل مع الآخرين كما تحبّ وتشاء، بل أنت مقيّد بضوابط شرعيّة تلزمك بمراعاة حقوق الآخرين، واحترام مصالحهم المادية والمعنوية»[١].

ثم ينتقل بنا نحو رسم خارطة وعي التسامح، وما هي الجهات المعنية بتنمية ثقافة التسامح، حيث يفتح عقولنا على قيمة التسامح بتفعيل قيمة الاعتذار وقبوله، فيعبّر بالآتي: «صدور الخطأ من الإنسان أمر طبيعي ومتوقع، فما دام ليس معصومًا فهو معرض للغفلة وسيطرة الشهوة وغلبة الانفعال، وتلك هي أرضية الخطأ ومنشأ حدوثه. لكن المهم كيف يتعامل الإنسان مع خطئه، فهل يتعهّد نفسه بالمراقبة والمحاسبة، ويراجع مواقفه وتصرّفاته، ليكتشف أخطاءه وعثراته؟ أم يبقى مسترسلًا سادرًا تتكرّر أخطاؤه وتتراكم دون اهتمام منه وانتباه؟

من ناحية أخرى، هل يمتلك شجاعة التراجع والاعتذار عن الخطأ؟ أم يصرّ عليه؟ أو يتهرّب من تحمّل المسؤولية تجاهه؟»[٢].

(١) م.س، كتاب: التسامح وثقافة الاختلاف، ص١٣٣.
(٢) ن.م، ص١٥٥.

تأسيسًا على هذه الأسئلة ينطلق بنا للإجابة عن سؤال جوهريّ في وعي أهميّة تنمية ثقافة التسامح:

لماذا الاعتذار؟

الاعتذار يعني الإقرار بالخطأ، وطلب العفو والصّفح من الطرف الآخر... والاعتذار سلوك حضاريّ يدلّ على احترام الإنسان لنفسه وتقديره لغيره، وينطوي على فوائد وعوائد كثيرة، من أهمّها:

- إصلاح النفس ومعالجة سلبيات السلوك.
- محاولة لإصلاح الخلل الذي أحدثه الخطأ وتدارك مضاعفاته على الآخرين.
- ينزع فتيل الغضب من نفس الطرف الآخر، ويطفئ نار العداوة، ويحتوي الأزمة والتشنّج.
- يشجّع الآخرين على التحلّق به... ويترسّخ كمبدأ في العلاقات الاجتماعية، وكقيمة أخلاقيّة ساميّة.
- الفوز برضوان اللّه والأمن من عقابه يوم القيامة، وذلك بالتخلّص من حقوق النّاس وظلاماتهم...»[1].

وعن خلفيات الامتناع عن الاعتذار يضيف بالقول: «يبدو أن هناك خلفيات نفسيّة وثقافيّة واجتماعيّة يمكن اعتبارها عوائق وموانع من

(١) ن.م، ص ١٥٧ ـ ١٥٩.

انتشار هذا الخلق الكريم.

أولًا: التفكير والتصور الخاطئ بأن الاعتذار عن الخطأ تشكّل حالة ضعف وهزيمة لشخصيّة الإنسان.

ثانيًا: التعصّب للذّات بتبرير أخطائها والدفاع عنها حتى في الزّلات والعثرات...

ثالثًا: التعالي والشعور بالرفعة والتفوق، وخاصّة إذا ما أخطأ الإنسان تجاه ما يعتقد أنهم أقلّ منه شأنًا ومكانة، فإنه يأنف ويستثقل طلب المعذرة منهم.

رابعًا: الثقافة العامّة والأجواء الاجتماعية: حيث تسود المجتمع ثقافة التفاخر والتباهي، وأجواء العصبية والمزايدات، مما يجعل الأفراد منساقين ضمن هذا التيار العام»[1].

وأخيرًا، يُكمل الشيخ الصفار خريطة حقيقة قيمة التسامح في وعي المسلم ويركّزها في الجغرافيا الاجتماعية للمسلمين، بتحديد ماهيّة قبول الاعتذار بعد اكتشاف ماهية الاعتذار وخلفيات الامتناع عنه:

«أن يقدّم المخطئ اعتذاره، تلك خطوة رئيسية مهمّة لتجاوز الخصام وتحقيق الوئام، لكنها يجب أن تقابل بخطوة إيجابية من الطرف الآخر، وهي قبول الاعتذار والصفح عن الإساءة، لتكون ثمرة الإصلاح والودّ

(١) ن.م، ص ١٦٠ ـ ١٦١.

يانعة ناضجة...

روي عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «من اعتذر إليه أخوه المسلم من ذنب قد أتاه فلم يقبل منه لم يرد عليَّ الحوض غدًا».

وفي حديث آخر عنه ﷺ: «من لم يقبل العذر من متنصّل صادقًا كان أو كاذبًا لم ينل شفاعتي».

ويقول الإمام عليّ عليه السلام: «أعقل الناس أعذرهم للناس».

ويقول عليه السلام: «اقبل اعتذار الناس تستمتع بإخائهم».

وورد عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام أنه قال: «إن شتمك رجل عن يمينك ثم تحوّل إلى يسارك واعتذر إليك فاقبل عذره».

ويقول الشاعر:

إذا اعتذر الجاني محا العذر ذنبه وكان الذي لا يقبل العذر جانيا[1]

ومما سبق، تبرز صورة التسامح في بعث قيمة الاعتذار وقبوله بين فئات المجتمع ومكوّناته. ويضيف لمساته الإرشادية التثقيفية، محدّدًا المسؤول عن نشر ثقافة التسامح في المجتمع بقوله: «يتحمّل قادة المجتمع ونخبه مسؤولية كبيرة في نشر ثقافة التسامح الداخلي بين التيارات والتوجّهات المختلفة، ووضع حدّ لحالات التعبئة والتعبئة المضادّة؛ لأننا في هذه المرحلة علينا أن نؤكد على ما يجمعنا كأتباع أهل البيت عليهم السلام ومنتمين

(١) ن.م، ص ١٦٢ ـ ١٦٤.

إلى خطّهم ومدرستهم، وراجين شفاعتهم، ويجمعنا اللّه تعالى يوم القيامة معهم.

وفي هذه النقطة ترد رواية جميلة عن الإمام الصادق عليه السلام يخاطب فيها بعض أصحابه، فيقول: «ما أنتم والبراءة يَبْرَأُ بعضكم من بعض؟ إنّ المؤمنين بعضهم أفضل من بعض، وبعضهم أكثر صلاة من بعض، وبعضهم أنفذ بصيرة من بعض وهي الدرجات».

إنّ تفاوت الآراء ودرجات الإيمان ومستويات التفكير لا يعني القطيعة، ولا المبالغة في مسألة المعاتبة، علينا أن نرفض ثقافة التعبئة الداخلية، وأن نقف أمام من يروّج لها، وعلى الجمهور أن يصل إلى الدرجة التي يقف فيها أمام أيّ جهة دينية أو اجتماعية تمارس الأساليب الملتوية»[1].

ومن جهة أخرى: «الدولة بوسائل إعلامها وبمناهج التدريس، عليها أن تسعى لنشر ثقافة التسامح، وأعتقد أننا نحتاج إلى حالة طوارئ على هذا الصعيد.

لأننا عانينا كثيرًا من ثقافة الإقصاء والحضّ على الكراهية ووضع الحواجز بين المواطنين لاختلاف آرائهم .. مذاهبهم.. توجّهاتهم.

الانتقال من هذه الحالة إلى أخرى يستلزم مضاعفة الجهود، وإطلاق برنامج ثقافي تنويري واسع، تربويًّا وإعلاميًّا، من أجل تدشين مرحلة

(١) كتاب: الإمام علي عليه السلام وقضايا الأمة، أطياف للنشر والتوزيع ط١ سنة ٢٠٠٧، القطيف، ص٢٠ ـ ٢١.

جديدة ليتجاوز الوطن آثار تلك الثقافة الإقصائية.»[١].

وفي المسار نفسه يذكر سماحته: «يحتاج أن تعتبر النخبة الوطنية هذه القضيّة قضيّتها، وتمارس دورها على هذا الصّعيد، للمساهمة في تبني المعالجة.. بالتبشير بثقافة التسامح، وقبول التعددية والرأي الآخر، وإدانة حالات التمييز عمليًّا والمطالبة بتجريم هذه الحالة.»[٢]

(١) م.س، كتاب: المشكل الطائفي والمسؤولية الوطنية، ص٣٥ ـ ٣٦.
(٢) ن.م، ص ٣٩.

سمات الانفتاح

تركيزًا لحقائق ومعالم وسمات الانفتاح، يناقش الشيخ الصفار، مسألة جوهرية مهمّة في مشوار تمكين ثقافة الانفتاح من تنمية العلاقات الاجتماعية في الأمّة، تتمثل في مسألة الأولويات والتنازلات، حيث ينطلق سماحته من مناقشة الواقع، ثم يحدّد النقاط الرئيسة في التعامل مع هذه المسألة: «علينا أولًا: أن نحرّر ما هي المبادئ وما هي العقائد حين نختلف في الرأي حول تفصيل أو فرع من الفروع العقدية؛ لأن المسألة ليست كوني متنازلًا أو متمسكًا، ولكني لست مقتنعًا ـ في بعض المسائل ـ بأنها من العقيدة، المسألة ليست مسألة تنازل، ولكن المسألة اختلاف في المصداق، في كون هذا الأمر من العقيدة أم لا؟ لا يصحّ أبدًا الاستدلال بالعنوان العام والدليل العام في الشبهة المصداقية، فأنا أتفق معك ـ مثلًا ـ في وجوب اجتناب النجاسات، ولكني قد أختلف معك في أن هذا الشيء الذي أراه خارجًا نجسًا أم غير نجس، أنت لا تستطيع أن تحاكمني بأني أستهين بالنجاسات، تعالَ وأثبت لي نجاسته، وبعد ذلك اتهمني بأني استهنت بالنجاسة.

ثانيًا: هناك بعض الجوانب قد تكون من العقيدة ومن الشريعة، ولكنّ

هناك ظرفًا يقتضي تجاوز هذا الجانب أو التنازل عن ممارسته؛ لأن هناك أولوية أهمّ، فهذا احتمال وارد، فمن يستطيع الجزم بضرس قاطع أنه لا يصحّ التنازل في أيّ شأن من شؤون الدين؟ التنازلات تصحّ في بعض الأحيان، بل هي مطلوبة في بعض الحالات، لماذا تسلّطون على الناس سيوفًا ترهبون بها الناس، وهذا رسول اللَّه ﷺ قدّم تنازلًا عندما رأى أن المصلحة في ذلك، وقَبِلَ مسح البسملة وعبارة (رسول اللَّه) من الكتاب الذي كتبه مع مشركي قريش... وهو أمر استدعى من بعض الصحابة أن يستنكروا ويغضبوا، حيث عدّوا ذلك تنازلًا، ولكن رسول اللَّه ﷺ العاقل الحكيم أمر بمسح البسملة وعبارة (رسول اللَّه) وعلّق على ذلك بقوله ﷺ: «إني لرسول اللَّه وإن كذبتموني»، أي وإن كذبني المشركون، أي إنه لم يتنازل عن قناعته بل تنازل لمصلحة.

يجب أن نتساءل: عن أيّ شيءٍ تعبِّر هذه الحادثة؟!! ألا تُعبِّر عن مصلحة في الموضوع اقتضت من رأس القيادة الإسلامية المتمثّلة في رسول اللَّه ﷺ أن يتنازل من أجل مصلحة أعلى...

إن عناوين (التنازلات) في بعض الأحيان إما أنّ من يطلقها غير واعٍ لمضمونها وأبعادها، أو أن القصد استغفال الناس ودغدغة مشاعرهم وعواطفهم.. ويبقى سؤال: من الذي يحدّد ذلك؟، وأجيب عنه بأن الذي يحدّد ذلك هم المتصدّون لهذه المهام كما في أيّ مجال من المجالات، فحينما نقول إن الزكاة تعطى للفقراء، من هم الفقراء؟ فلا المرجع يحدّد أن فلانًا فقير وأن فلانًا ليس بفقير، بل الجهة المتصدّية، من قبيل الجمعية الخيرية التي تعمل دراسة لحالة المدّعي الفقر، وعلى أساسها تشخّص فقره أو غناه، كأيٍّ موضوع من الموضوعات التي تحدّدها الجهات المتصدّية الكفوءة المؤتمنة»[1].

(١) م.س، كتاب: الانفتاح بين المصالح والهواجس، ص٢٢ ـ ٢٧.

الخاتمة

كانـت تلـك أفكار ذات مغـزى، ومع ذلك فـإن اهتمامي ينصبّ على القول بأن الراهن الإسلامي ليس ناقصًا فقط من ثقافة الانفتاح، ولكنه في الواقع غير مستقرّ لاستيعابها، فهناك هواجس عديدة وتناقضات متعدّدة وحالات مـن التخلّف والضمور في إطار الوعي الإسـلامي العام، حيث أجمل ما استوحيته من خـلال قراءاتي المتواضعة والمستمرة لفكر الشيخ الصفار: «علينا أن نوجّه المشاعر نحو الاتجاه الصحيح، لتكون كل مظاهر وحالات التخلّـف والرجعية والطائفية صدمة توقظ الأمة، وتدفعها نحو استعادة تضامنهـا الإسـلامي، كما دفعت الحربـان العالميتـان أوروبا نحو طريق الوحدة والاتحاد»[1].

وأيضًا في استطاعتنا أن نكتشف ثقافة الانفتاح على مستويين:

أولًا: مـشروع إنسـاني حضاري مؤَصَّلٌ إسـلاميًّا، متشـابك مع معالم

(١) م.س، كتاب: الطائفية بين السياسة والدين، ص٤٢.

قيمية إسلامية مركزية (التعارف، التعايش، الحوار، التسامح، الوحدة).

وثانيًا: حاجة واقعية ملحّة لتجديد التفاعل السوسيوثقافي للمسلمين في الزمن المعاصر.

أما بعد: الانفتاح أساس إحياء التضامن الإسلامي... الانفتاح هو رمز من رموز شيفرة المستقبل الإسلامي، وحتى نقدر على تقبل الآخر وتنمية الوعي بالحاجة إلى فهمه والتفاعل والتعاون معه، لا بُدّ من معرفة الذّات لوعيها وتركيز وصيّة حكيم الإسلام ﷺ: «لا تخرج نفسك من حدّ التقصير»، عبر نظم أمر الذّات وتطوير أمنها الفكري والروحي والاجتماعي...

وختامًا أقول لإخواني القراء عبر العالم الإسلامي من كلّ غرف البيت الإسلامي الرحيب: إن ثقافة الانفتاح ثقافة استراتيجية، لو أنكم أردتم الأخذ بمنطق هذه الثقافة فلن يبقى من الطائفيين إلا القليل؛ لأن الانفتاح ينتخب الحوار ويُفَرِطَ في الغوغائية والفوضى... هذه الوريقات جاءت لتفتح قلوبكم وعقولكم على فكر أستاذ رساليّ كبير عاش الإسلام موقفًا واعيًا أكثر منه انفعالًا، وفي هذا الصّدد أتذكر كلمة للعلامة الفقيه المجدّد السيد محمد حسين فضل اللَّه ﷺ قال: «أيها المؤمنون ... أيها المسلمون... يريدنا اللَّه أن نعيش الانفتاح، كلّ الانفتاح... أن لا يختبئ أحدُنا في زاوية ليحصر اللَّه في زاويته... مشكلتنا أن كلّ واحد منّا يريد أن يجعل اللَّه إلهًا

خاصًّا لعائلته أو بلده أو قوميته، لا هَمّ له ولا شغل سوى الاهتمام بأمور قومه فقط لا غير... بينما اللَّه يوجّهنا دائمًا وأبدًا أن نقرأ في صلاتنا اليومية: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

أيها الإنسان... أيها المسلم ... اللَّه تعالى ليس ربّك وحدك، ولا ربّ عائلتك وحدها، ولا ربّ قومك وحدهم... وحتى ليس ربّ الإنسان فقط، إنه ربّ العالمين ـ كما وصف نفسه ـ ربّ كلّ العالمين؛ لأنه خالق كلّ العالمين ...

فإذا كنت تعرف بذلك، فما عليك إلا أن تكون في حياتك منفتحًا على كلّ الآفاق التي تمثلها ربوبية اللَّه سبحانه وتعالى... أنت عبد اللَّه، وعليك أن تهتمّ بكلّ عبيد اللَّه، وهذا ما أشار إليه الإمام علي عليه السلام في كلمته الخالدة: «أيها الناس... اتقوا اللَّه في عباده وبلاده، فإنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم...»[1].

وبهذا الجهد المتواضع، نسأل اللَّه تعالى أن تجد هذه الجواهر الثمينة من فكر الشيخ الصفار، الأسماع المصغية، والقلوب الواعية، والنفوس الصافية.

وخلاصة البحث: أن ثقافة الانفتاح لا يمكن استيعابها بعيدًا عن موقع المسؤولية الإسلامية تجاه الإسلام والمسلمين والحياة كلها... ورزقنا اللَّه

(١) كتاب: من أجل الإسلام، ط١، سنة ٢٠٠٤، آية اللَّه العظمى السيد محمد حسين فضل اللَّه، دار الملاك، بيروت، ص ٢٢٠ ـ ٢٢١.

وإيّاكـم صدق القول وخلوص النية والعمل، وعصمنا من الخطأ والزلل، إنه سميع مجيب...

وصـلى اللَّه على سـيّدنا محمد وآله الأطهار وصحبـه الأخيار... واللَّه من وراء القصد.

تم بحمد اللَّه في:
يوم الأحد ١٥ جمادى الآخرة ١٤٣٣هـ
الجزائر

المصادر والمراجع

من مؤلفات الشيخ الصفار

- الأحادية الفكرية في الساحة الدينية. الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ، (بيروت: الدار العربية للعلوم).
- الإمام علي عليه السلام وقضايا الأمة. الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ، (القطيف: أطياف للنشر والتوزيع).
- الانفتاح بين المصالح والهواجس. الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ، (القطيف: أطياف للنشر والتوزيع)
- التسامح وثقافة الاختلاف: رؤى في بناء المجتمع وتنمية العلاقات. الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ، (بيروت: دار المحجة البيضاء، دار الواحة).
- التنوع والتعايش: بحث في تأصيل الوحدة الاجتماعية والوطنية، الطبعة الأولى١٩٩٩، (بيروت: دار الساقي).
- الحوار والانفتاح على الآخر، الطبعة الأولى١٤٢٥هـ، (بيروت:

دار الهادي).

- القيـادات الدينية: الخطاب والأداء الاجتماعي على ضوء مصادر الشـيعة الإماميـة، الطبعـة الأولى ١٤٣٣هـ، (القطيـف: أطيـاف للنشر والتوزيع).
- الطائفية بين السياسـة والدين. الطبعة الأولى٢٠٠٩م، (بيروت: المركز الثقافي العربي).
- المشـكل الطائفي والمسـؤولية الوطنيـة، الطبعـة الثانية ٢٠٠٩م، (القطيف: أطياف للنشر والتوزيع).
- المؤسسـات الأهليـة وحمايـة الأمـن الاجتماعـي، الطبعـة الأولى١٤٢٩هـ، (القطيف: أطياف للنشر والتوزيع).
- كيف نقرأ الآخر. الطبعة الأولى١٤٢٥هـ، (بيروت: الدار العربية للعلوم).

المحتويات

إهـداء ٧

في البدء كان فكرة ٩

تمهيد ١١

حقيقة أزمة الانفتاح ١٥

العامل التربوي: ١٥

عامل التوجيه الديني: ١٦

العامل الاجتماعي: ١٦

العامل السياسي: ١٦

العامل الثقافي: ١٧

العامل الإعلامي: ١٨

تجلّيات أزمة الانفتاح ١٩

ماهيّة الانفتاح على الآخر ٢٣

لماذا الانفتاح على الآخر؟ ٢٣

الموضوعية: ٢٧

استيعاب حقّ الاجتهاد وشرعية الاختلاف في الرأي: ٢٧
الانتقال من كهف التعصّب إلى فضاء التعايش ٣١
خارطة مواجهة التعصب: ٤٥
العبور إلى شاطئ التعايش: ٤٨
معالم الانفتاح: ٥٤
١. في البدء التعارف: ٥٤
٢ . ما بين الانفتاح وثقافة الحوار: ٥٩
٣. تنمية ثقافة التسامح: ٦٤
سمات الانفتاح ٧١
الخاتمة ٧٣
المصادر والمراجع ٧٧
المحتويات..... ٧٩